الفيلسوف الصامت

او كأنك تعيش ابدا

— ١ —

عاش أربعين سنة من حياته بين الامواج ، بعيداً عن جلبة المدنية وعن معاشرة الناس . ومات وقد أوفى على الخامسة بعد السبعين من سنى الأرض . فكأنه ركب ظهر هذه الجائحة الهوجاء ، الهائمة فى الفضاء ، وأكمل الدورات حول الشمس خمساً وسبعين مرة ! ! !

ينحدر من أسرة معروفة فى دمياط . ولقد عرف عن هذه الميناء أن أهلها اذا لم يعكفوا على التجارة ، عكفوا على العمل اليدوى . فاذا لم يفسح المجال فى أحد هذين الميدانين لاحد منهم ، فلا أقل من أن يعكف على الفلسفة . وعلى هذا كان فيلسوفنا الذى نسوق اليك اليوم جزءا مقتضباً من حياته الحافلة بالأفكار ، دون الآثار

على أن فيلسوفنا لم يخرج بعد عن شاكلة أهل بلدته . فهى بلدة قلما جادت على مصر بنابه من نابهيها ، أو بصاحب فكرة معروفة من أهل الأفكار فيها . فلما تمخضت بعد طول العقم عن هذا الفيلسوف ، أخرجته فيلسوفاً صامتاً كالقبر ، صلباً كالحجارة . بل الحجارة الثقيلة التى تسمع من ورائها دمدمة البراكين وتهدار الزلازل ، تغلى فى باطنها . فكان إذا تكلم سمعت من وراء كلماته همهمة بعيدة ، فتشعر كأنك أمام ظاهرة من ظاهرات الطبيعة، لا أمام ابن من أبناء آدم وحواء . ذلك لأنك كنت تسمع الكلمات تتساقط من فيه وتخرج بينة المقاطع والحروف ، ولكن يخرج معها من صدره صوت يرن فى نواحى نفسك ، رنيناً يبعث فيك الروعة والاكبار

وكنت تراه مقطب الجبين عابس الوجه ، فيخيل اليك أنه ناقم على الحياة والاحياء . وهى ظاهرة كانت على عكس حقيقته . فانه كان يرسل الحكمة فتأخذك العظة . وكان يشرح النظرية فتتلقى البيان . وكان يأتى بالفكاهة فتغرب فى الضحك . أما هو فيظل جامداً ، كأنه لم يأت بحكمة ، وكأنه لم يشرح نظرية ، وكأنه لم يرسل مع فكاهته عاصفة من المرح فى نفوس السامعين . فهو هو فى كل الحالات . جامد الوجه حاد النظرات ، هادىء النفس ، قرير العين . كأن نوبات الحياة التى تدور بالنحس

حيناً وبالسعد آخر ، قد نسيته فلم تعرفه ، ولم يعرف منها إلا أنها الليل والنهار يتعاقبان . وهو راض مادام في معدته شيء تهضمه ، وعلى جسده كساء يدفع عن هيكله المتهدم سورة الطبيعة على الشيوخ أمثاله

وقد تعجب إذا علمت أنه كان في غنى يطمع فيه أهل اليسار . وقد ترك كل ما كان يملك لابن أخيه يتصرف فيه كيف يشاء . فاذا جمع الغلة وأحضرها اليه أخذ منها الثلثين وترك الثلث لابن أخيه.فاذا أكملت الارض دورة أخرى حول الشمس،وعاد ابن الأخ بغلة البقعة التي يملكها فيلسوفنا من هذا السيار الصغير ، أخذ الثلثين وترك لابن أخيه الثلث ، مع مايكون قد تبقى لديه بعد نفقاته من غلة السنة التي قبلها ، بالغاً مابلغ من المال . فكان في هذا مثالا للقناعة الصحيحة ، لايهمه من أمر الدنيا إلا أن يكون راضياً بنصيبه منها ، غير آبه رضيت الدنيا عنه ، أم غضبت عليه .

— ٢ —

لاشأن لنا بهذا الفيلسوف في نشأته . فالراجح أنه نشأ كما تنشأ بقية أولادنا بعيدين عن أن يحفظ عنهم آباؤهم شيئاً من حوادث الصبا إلا روايات تافهة لايمكن أن ينتفع بها المترجمون عن حياتهم . ولكنا نريد أن نلتقي بفيلسوفنا بين جدران الازهر يتلقى « العلم » ويتفقه في « الدين » على القواعد التي جرى عليها شيوخ الازهر منذ ثبتت قواعده على البقعة التي شاء القدر أن تقوم من فوقها جدرانه الثقيلة .

وشب بين جدران الازهر ، فصار فتى ، رجل فرعه ، واستبانت عضلاته . واكتملت فيه طريقة التنقيب الاكاديمي ، لا على الطريقة الجدلية التي جرى عليها الأزهر ، بل على طريقة أخرى ، لم يتلقها عن أحد ، ولكنه سبق اليها بنزعة كانت فيه ، قوتها من بعد الحوادث ، وأكملتها المناقشات ، فكنت تراه يجلس على حصير في حلقة الدرس أمام أستاذ من أساتذة علم الأصول أو التوحيد ، فينصت إلى مايقول انصات المستوعب ، لا انصات المستجمع ، فاذا خلى بنفسه أخذ يطيل التأمل ويتابع التفكير ، منفرداً عن بقية اخوانه الطلاب ، ثم لايلبث أن يتنهد تنهدة عميقة يخيل اليك معها أن حشاشة قلبه كادت تثب إلى فيه .

وكان في أكثر ساعاته هادئا راضيا . غير انه كان في بعض الاحايين ثائرا صاخبا أما ثورته وصخبه فكونان اذا أصاب من أحد اخوانه قولا ينافي العقل ، او اشتبك في مناقشة فرماه احد المناقشين برأى قائل او لجأ الى النقل ليقول له ، لا يسأل عما

يفعل ، او « هكذا شاءت الارادة الازلية » ، او يرميه ببرهان منطقي فاسد المقدمات ، او يقول له (علم الاوائل بالتصديق اولى) ! !!

كانت هذه النزعات الشكية تقوى شيئا بعد شيء في نفس هذا الفيلسوف الصامت ، فكان لا يتفوه بشيء ينم عنها الا بمقدار ما يسمح له صمته ان يتفوه . وكثيرا ما كان يعبر عن شكه باشارة او ابتسامة ، او تقطيب حاجبيه ، او الانطلاق في سبيله من غير ان يرد جوابا او يستأذن في المسير .

على أن هذا الشك لم يكن ظاهر الغايات ، بل كان شكا يتناول بعض المبادىء التى يتلقنها أو النظريات التى يسمعها أو يقرؤها . وكان حتى هذه الآونة ثابت اليقين في الدين ، كبير الاعتقاد فيما يعمر المعتقد الدينى من المغانم للنوع الانسانى . واكتفى بأن يكون الشك بينه و بين نفسه ، فمضى مهموماً به كأنه حمل ثقيل يقض عليه فى الليل مضجعه ، ويصرفه فى النهار عن الناس .

وكان أبوه قد عهد به الى أحد أصحاب الفضيلة من معلمي الازهر ليقوم على أموره الدنيوية ، ويتصرف فيه تصرف المالك فى ملكه . فكان اذا أرسل نقوداً فانها لا تخرج من جيب صاحب الفضيلة إلا نجوماً لا يساوى النجم منها أكثر من مليم فى صبيحة اليوم وآخر فى مسائه . أما الخبز والادام فمن بيت صاحب الفضيلة مع فضلات الجراية يأكلها الفيلسوف الصامت راضياً قانعاً .

على أن أباه كان فى بسطة من الرزق وخفض من العيش ، يملك حول دمياط ضياعاً وفى المدينة بعض العقار . فبادر الى ذهن فيلسوفنا أن أباه يريد أن يعوده الاحتمال والصبر ، وأن يغرس فى نفسه فضيلة الزهد فى الدنيا . فصبر وصابر حتى ضاقت به الحال ذات يوم ، فكتب الى أبيه خطابا يشكو سوء حاله وتقتيره عليه ، وأنه لا يشركه فى بعض مما أفاض به عليه الله . ومضى على الخطاب أسابيع لم يعرف فيها ما كان من أثر خطابه فى أبيه .

وذهب ظهيرة ذات يوم الى منزل صاحب الفضيلة يتبلغ بكسرة من الجراية ، فاذا به يرى مائدة اذا قيس ما فيها بأدام كل يوم كانت المائدة التى أهبطت من السماء . فأخذه العجب ، وقال فى نفسه لعل الاستاذ صاحب الفضيلة قد أولم لأحد أصحابه أو أقربائه . غير انه تبين أن المائدة كانت إحتفاء بمقدم أبيه . فعلل النفس بانفراج الازمة ، وتخيل أن خطابه فعل بأبيه من الأثر ما أمل أن يكون .

غير أن أمله قد ضاع عندما قدم أباه الى البيت ، فلم يحسن مقابلته بعد مغيب عدة سنوات كاملات . ثم تبين أن صاحب الفضيلة كان يقبض من أبيه خمسة جنيهات كل شهر نفقة له ، وجنيهاً للسكن . وأن صاحب الفضيلة قد أوقع بين الأب وبين أبنه بدعوى أن الابن مسرف وانه يدينه فى مبلغ من المال لم يشأ أن يقبض يده به عنه لئلا يكون بهذا مقصراً فى حق ابن صديقه الحميم . وصمم الوالد على أن يحرم ابنه من التعليم وأن يصحبه الى دمياط ليعمل فى الحقول . وعبثاً حاول صاحب الفضيلة أن يقنع الأب بأن فى خروج ابنه من الازهر خسارة . فعلى هذا صمم الأب ثم نفذ ، فلم يشأ أن يغادر القاهرة الا ومعه ابنه الفيلسوف

وكان الوداع قصيراً . ولما هما أن يفترقا سأل فيلسوفنا شيخه صاحب الفضيلة قائلا :

« أمن الذمة والدين أن تكذب بعد أن تسرق مال غيرك » فكان الجواب سبباً فى أن يذهب بالبقية الباقية من يقين الفيلسوف ومعتقده . فان الشيخ قال له « أوصيك يابنى بهذه الحكمة » .

« اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

هنا أدرك فيلسوفنا أن شيخه قد عامله على مقتضى هذه الحكمة . وهنا عرف أن صاحب الفضيلة قد برر السرقة عملا بهذه الحكمة ، وأجاز أكل السحت . وضرب بالفضائل عرض الافق الاوسع ، حيث أن العمل للدنيا تجيزه الطبيعة ، وإن نافى الاخلاق والفضائل . ومادام العمل للآخرة مفتوح الباب بالصلاة والصيام والقيام زلفاً من الليل وأطرافا من النهار .

فأدار الفيلسوف ظهره لشيخه الوقور متمتما فى نفسه : —

لقد صدقت أيها الشيخ المبجل والحق فيما نطقت به . لا خطيئة فى أن تسرق ، ولا خطيئة فى أن تكذب ! ولا خطيئة فى أن توقع بين الابن وأبيه ! بل ولا خطيئة فى أن تقتل ! مادامت كل هذه الخطيئات توصلك الى العمل لدنياك كأنك تعيش أبداً

وخرج الى الطريق فوجدها تعج بمن يعملون لدنياهم كأنهم يعيشون أبدا ! ورأى اباه فى وسط الطريق وقد اختلط بالذين يعملون لدنياهم كأنهم يعيشون أبدا . فأسرع الخطو . ولكن اباه كان قد اندس فى زمرة من الناس اجتمعت حول شخص أحاطت به سلال الخبز يبيعه ، ومن حوله فقراء جياع عراة ، مد أحدهم يده خلسة ليأخذ رغيفا يتبلغ به ويرد به عن نفسه عادية الجوع ، فأخذ الرجل بتلابيبه متلبسا بالجريمة

وأسلم به الى الشرطي. وقد اجتمع من حوله الناس يتوسلون بفقره الى الرجل ليصفح عنه، معتذرين عنه بأنه لم يسرق ليسرق، بل ليأكل، وان «طالب القوت ماتعدى». ولكن كيف يصفح الرجل والعيش لغيره، ومن بقايا الجراية، وأصحابه يطالبونه بالثمن وبأن يكون أمينا؟ ولقد احتج الرجل بأن فى هذا العمل عيشه، وأن أصحاب الجراية اذا سمع أحدهم بتصرفه هذا حرمه عمولة البيع وبقايا الكسر!

وكان فيلسوفنا قد أدرك أباه، فصاح به الى أين نحن ذاهبان؟ ألى دمياط؟ كلا ياأبت. انى لا أريد أن أكون من زمرة الذين يعملون لدنياهم كأنهم يعيشون أبدا. كلا ياأبت لا أريد!

ولقد تبادر الى ذهن الاب أن ابنه قد أصابه من الشيطان مس، فأخذ يتأمله من مفرق رأسه الى أخمص قدميه. وقد زاغ بصر الفيلسوف كأنه وقع على عالم جديد لم يكن يعرفه، أو كأن سرا عميقا من الاسرار أزيح عنه الستار أمامه فجأة ففعل به مايفعل الجنون المؤقت بشخص كامل الادراك

«ماذا تقول يابنى»

«أقول لك صراحة وفى غير لبس، انى لا أريد أن أكون فى زمرة الذين يعملون لدنياهم كأنهم يعيشون أبداً!! كلمات صريحة عربية فصيحة مفهومة!!! ماذا تريد منى؟ الطريق ممهود أمامى، ولا أعجز عن أن أجد عكازا وجرة أجمع فيها الصدقات لأعيش من فضل ذوى البر والاحسان!!! هذا عندى خير من أكون فى زمرة الذين يعملون لدنياهم كأنهم يعيشون أبدا!!؟

«ومن هم يابنى الذين يعملون لدنياهم كأنهم يعيشون أبدا»؟

«من هم؟ الشيخ صاحب الفضيلة الذى وصيته بى، وهؤلاء الناس.. وأنت أيضا»

«سامحك الله يابنى»!!

«ولماذا؟ هل أغضبتك يا أبى؟ أو تعرف ان الذين يعملون لدنياهم كأنهم يعيشون أبدا أدنياء»؟

«كلا يابنى؟ ولكن ما السبب فى هذا الانقلاب الغريب»؟ عرفنى!

«السبب لا أقوله ولن أقوله! ولكن يكفى أن تعرف أن زمرة الذين يعملون لدنياهم كأنهم يعيشون أبداً سفلة أدنياء. أشقياء. لا يعرفون للخطيئة معنى اللهم الا

أن يكون الامتناع عنها حائلا دون نفع تجرى عليه حكمة العمل للدنيا كأن الانسان يعيش أبداً . »

وكان الاب قد تأكد أن ابنه قد مس أو جن فلاطفه قائلا

« أو تعتقد يابنى أنى من هذه الزمرة ؟

وكان الابن قد أخذته الشفقة على ابيه الشيخ أن تطول به اللجاجة فى أمر لايفهم سره ، وخشى أن يستقوى عليه الحنان البنوى فيرتد عن عزمه الذى عزم ، فلم يحر جوابا ، بل شمر عن ساقيه وأدار ظهره لوالده وانطلق يسابق الريح فى الطريق المزدحم

— ٣ —

وظل يجرى فى طرق لايعرفها ، وكأنه يشعر بأنه مطارد مطلوب ، فلما أعياه التعب كان قد جاوز جسر قصر النيل ، فانحدر الى الشاطىء وارتمى تحت شجرة ، منهوك الجسم يلهث لهثاً شديدا ، وقد أمن أن يلحق به أبوه أو يعرف له مستقراً .

وماذا يصنع؟ وكيف يعيش ؟ وهو مسكين ، ولا يملك قوت يومه ، اذن فليجلس قليلا حيث هو لعل منظر النهر المنساب تحت قدميه ، والنسمات التى تحملها أمواجه ترد عليه شيئا من القوة أو تبحث فيه ريحا من الامل . وأخذته سنة من النوم ، فلم يستيقظ الا وقد أرخى الليل سدوله ، وأخذت امعاؤه تطالبه بأن يعمل لدنياه . فقال فى نفسه نعم فلأعمل لها ، ولكن لن أعمل لها كأنى أعيش أبدا . فانى عند حد قول من قال

قليل الهم لا ولد يموت	وليس يخاف شيئا يفوت
قضى وطر الصبا وأفاد علما	فغايته التفرد والسكوت
وغاية همه عما عليه	تناحر من ترى خلق وقوت

وتحفز للسير بعد أن أصلح من شأنه ، وأخذ يسير فى الطرقات على غير هدى ، حتى اذا عضه الجوع وبلغ منه السغب ، وقف أمام باب يشعر بأنه باب بيت كبير وان أهله فى يسار ، وسأل كسرة يتبلغ بها ، فاهين وانتهر ، فمضى وهو يقول فى نفسه لعل هؤلاء من الذين يعملون لدنياهم كأنهم يعيشون أبدا . وعزم على أن يبيت على الطوى . وظل يتسكع فى شوارع العاصمة حتى بزغت الشمس وأخذت الافاعى البشرية تنساب فى جوانبها .

لابد له من عمل يعيش من أجره ، ولا بد له من أن يأكل ليعيش . ولكن من ذا الذى يحمل فيلسوفا على أن يعمل للدنيا كأنه يعيش أبدا ؟ يستطيع أن يكتب لابيه

وأن يذهب ليعيش فى ضياعه ! ولكنه لن يفعل . فان ارتكاب الخطيئات شرط ، مرهون عليه العمل للدنيا كأنك تعيش ابدا . هذا ماثبت فى رأس الفيلسوف ، وعلى هذا المعتقد طواه التراب .

ولقد تناهبته الايدى المستثمرة العاملة للدنيا كأن اصحابها يعيشون أبدا . فنهم من سخره ولم يدفع له كل أجره ، ومنهم من غالطه فى الحساب ، ومنهم من كذب عليه ، ومنهم من اتهمه زورا ليخلص من حق له عليه . ومنهم من أنكر أنه رآه أو كلفه بعمل ما .

ولقد كانت نتيجة هذه الجولة الواسعة ان يعتقد الفيلسوف ، أن كل الناس سواء فى العمل للدنيا كأنهم يعيشون أبدا . وكان آخر التطواف أن يظل ثلاثة ايام بلا طعام ولا مأوى حتى سقط فى بعض الطرقات فاقد الحس مشرفا على الموت .

— ٤ —

— « لعلك ياسيدى لست من الذين يعملون للدنيا كأنهم يعيشون ابدا » .

— « كلا يابنى . إنا نعمل للآخرة قبل أن نعمل للدنيا » .

— « ومن أنت وأين انا » ؟

— « انا أخوك الراهب بطرس . وقد رأيتك تسقط فى الطريق مشرفا على الموت ، فأخذت بيدك وحملتك الى مستشفى الدير اجابة لصوت الانسانية الذى يبعثه فى نفوسنا الدين النصرانى » .

— « او يأمرك الدين النصرانى بان تحب الانسانية ، بلا تفريق بين معتقدات البشر » ؟

— « نعم . ولكن يأمرنا مع هذا ان نبشر به لكل من نستطيع . وان نهدى اليه من يفتح الله قلبه للايمان »

— « فاذا كان مؤمنا بالله و اليوم الآخر ورسله وملائكته ، وكان ثابت اليقين راضيا عن معتقده ، مؤمنا بكل ما يجعله عضوا صالحا فى المجتمع الانسانى » ؟

— « لا اظن ان يكون شخص عضوا صالحا فى المجتمع الانسانى الا اذا كان نصرانيا ، لانه دين الحق الذى اتى به ابن الله ليخلص به الانسانية من الخطيئة الاولى ويفتح له ملكوت السموات » .

— « أو تعتقد اذن ان ملكوت السموات مغلوق امام كل الانسانية الا النصارى » ؟

— « وهل تشك فى ذلك ؟ الست قبطياً من اتباع الكنيسة الاورثوذكسية » ؟

— «كلا . بل انا مسلم أؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام وديني الاسلام وكتابي القرآن» .

— «هذا حسن . وانت حر في معتقدك . ولك ان تبقى هنا او تخرج متى شئت . فلا فرق عندنا بين بني الانسان ، فكلهم سواء وان اختلفت عقائدهم» .

وتركه الراهب هنري في حيرة من أمر نفسه . وكان أول ما تبادر الى ذهنه انه وقع على زمرة لا يعملون لدنياهم كأنهم يعيشون أبدا . فاطمأنت نفسه بعض الشيء ، ومضى معتقدا أن في الارض مكانا لا يعرف أهله العمل للدنيا كأنهم يعيشون أبدا ، وان حرية المعتقد مكفولة . والامر عجيب . فهذا سر لم يعرفه من قبل فيلسوفنا الصامت .

— ٥ —

ولكن كيف لا يكون شخص عضوا صالحا في المجتمع الانساني الا اذا أصبح نصرانيا ؟ وكيف أن ملكوت السموات غير مفتوح الا للنصارى ؟ ولكن ، ما شأنه بهذا مادام يستطيع أن يظل في الدير محتفظا بمعتقده وايمانه ؟ أمر ثانوي اذن أن يكون نصرانيا أو مجوسيا أو محمديا ، مادام أهل الدير لا يفرقون بين المعتقدات ولا بين البشر لمعتقداتهم .

ومضت عليه برهة من الزمن في المستشفى . فاذا شفي كلف ببعض العمل في حديقة الدير ليعوض بها عن اهل الدير بعض ما ينفقون في سبيله ، وليكون عند حد قول التوراة «بعرق جبينك تأكل خبزك» . فرضي قانعا وفي نفسه همس دقيق يوحي اليه بان يعمل ليأكل خبزه بعرق جبينه . ولكنه لن يعمل لدنياه كأنه يعيش ابدا .

لم يكن ليعلم حتى اليوم ان الراهب هنري وزملاءه يخفون وراء حب الانسانية الذي يتظاهرون به حب الدنيا يعملون فيها ليفوزوا بالعيش ابدا في جنان الخلد . ولم يكن يعرف ان الذي يعمل كأنه يعيش ابدا سواء عنده اعمل ليعيش في الدنيا ام الآخرة . فكله عيش ابدي تبرر في سبيله كل الوسائط ، ولا يجب ان تحول دونه وسيلة من الوسائل .

وكان اهل الدير قد عهدوا الى هنري ان يكون مبشرا لعبد الرحمن بدين النصارى ، وان يعمل في الدنيا عملا يكفل له العيش الابدي في الآخرة . وبدأت المناقشات والمحاورات . وظلت الحرب سجالا بين المبشر الذي يريد أن يفوز بالعيش الابدي في الآخرة . وبين الفيلسوف الذي لا يريد أن يعمل ليعيش أبدا .

— «اذن كان ادعاؤك أن ساحة الدير لا تعرف التفريق بين الاديان وسيلة

تستبقينى بها . حتى اذا ذللت الطريق دعوتنى الى دينك . وهذا لعمرى منتهى التعصب للرأى » .

— « كلا ياعبدالرحمن . فان الدين النصرانى ، دين الحب والتضحية والأخاء الانسانى وهى مبادى، لا تجدها فى دين آخر من الاديان » .

— « واضطهاد اليهود فى أوروبا ، والحروب الصليبية فى الشرق ماذا تقول فيهما » ؟

— « لاشىء . ولكن الدين النصرانى يفرض على النصرانى أن يدير خده الايمن لمن يلطمه على خده الايسر . وهو مبدأ صريح فى الاناجيل » .

— « مبدأ نظرى ككثير من المبادىء التى تقال ولا يعمل بها » .

— « إذن فأنت غير مؤمن أو على الاقل لاأدرى أو شاك » .

— « وماذا على أن أكون كذلك مادمت بين جدران الدير ، وهو مكان كفلت فيه حرية المعتقد والرأى » ؟

— « وماذا جعلك تصل الى هذه الغاية التى تحرمك ملكوت السموات » ؟

— « السبب ياسيدى الراهب انى وجدت أن أهل الدنيا جميعهم ومن غير استثناء ، حتى علماء الدين الاسلامى الحنيف ، يعملون لدنياهم كأنهم يعيشون أبدا » .

— « وأية غضاضة فى هذا » ؟

— « الغضاضة أعرفها أنا وحدى ولا أريد أن أفضى بسرها لأحد . فان شكوكى القديمة قوتها الحوادث حتى أصبحت بعيدا عن الايمان وإن شئت فقل أصبحت حرا من العقائد ومن الايمان ومن التقاليد » .

— « الايمان هو الجانب المأمون . فاذا مت وكان عدم ايمانك قائما على أساس فهنالك تنتهى حياتك وينتهى تجديفك معها . واذا لم يصدق إنكارك ، فأنت ولاشك ذاهب الى جهنم فتلقى عذاب السعير » .

— « ليس الامر كذلك فانى أعتقد انى اذا مت وكنت صادقا فى عدم ايمانى ، فان حريتى هذه تعيش من بعدى ، ويتبع الناس فى الحياة مثلا أقوم بأن لاينكبوا على العمل لدنياهم كأنهم لا يعيشون أبدا . وبذلك يتحررون من التقاليد والاساطير التى تعوق سير الحضارة » .

— « ولكن يجوز أن تكون مخطئاً فى أنكارك ، وبذلك يكون الايمان آمن طريق» .

— « إذن فأنت تريد أن تتمثل بقول من قال .

« زعم المعلم والطبيب كلاهما أن لا حياة فقلت ذاك اليكما »

« إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالخسار عليكما »

« ولكن أريد أن أسألك يا حضرة الراهب أي صور الايمان تعنى ؟ أيحق لي أن أقبل أية عقيدة أشاء ؟

— « كلا هذا مستحيل . اني انصحك ان تقبل المعتقد النصراني »

— ولم لا أصبح موسويا اومجوسيا اذا كان الامر مقصورا على أن يكون الانسان ذا عقيدة ؟

— لان عيسى ابن الله أتى ليخلص الانسانية .

— ومن أي شيء أتى ليخلصها ؟ ولماذا لا أظل كما أنا مسلم بالتقليد لان آبائي كانوا مسلمين وكفى . ؟

— ان الدين النصراني لايعترف بمحمد .

— ولكن محمداً يعترف بعيسى وموسى وابراهيم وجميع الرسل والانبياء فدينه أوسع ، ومجال الخلاص فيه أرحب وأفسح . ولكن لماذا يكون الانسان ذا عقيدة في أمر غيبي على اطلاق القول ؟

— لان الدنيا لاتصلح بغير دين . ولان الدين يمنع الشرور والمفاسد . ولانه لولا الدين لاكل الناس وذبحوا بعضهم بعضا ، وبذلك تكون نهاية الحياة البشرية .

— يا أخي هنري ! ان الدين لم يمنع أهله بعد آلاف السنين من أن يعملوا لدنياهم كأنهم يعيشون أبداً . وفضلا عن هذا فان الخوف من قانون العقوبات والبوليس كفيل بالنظام . وأزيد لك بأن الانسان نوع من الانواع الحيوانية ظل بلا دين أزمانا طوالا فلم لم يأكل بعضه بعضا ؟

— الاديان لاتسلم بهذه النظرية .

— حسن . اذا كانت الانواع الحيوانية كالذئاب والسباع ، بل والعقارب والثعابين لاتأكل بعضها بعضاً ولاتفنى بعضها بعضاً ، فأولى بالانسان أن لايكون أقل منها حكمة ؟

— أراد الله ان لا يكون الانسان بغير دين

— أتقصد مطلق الدين . اذا كان الامر كذلك فأتباع محمد يزيدون الآن على ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ نسمة ، وكلهم يعتقد أن القرآن كتاب الله . فلماذا تفضل الدين النصراني ؟

الأفرنج(١) رواية البلاذري الاولى وعقدوا عليها أهمية كبرى فاثبتوا أن أبا عبيدة لم يرسل آنئذ ويغالي كيتاني(٢) فيقوله إن أبا عبيدة لم يظهر فى سورية الا بعد معركة اليرموك (عام ١٥ - ٦٣٦) . على أن معظم مؤرخي العرب يذكرون سير ابى عبيدة آنئذ(٣) وآخرون يذكرون تسميته أميراً فى حالة اجتماع القواد(٤) وعلى كل فانه من الممكن أن يكون أرسل مؤخراً لينجد من تقدمه .

ويروى سيف بن عمرو ويتبعه فى ذلك ابن الأثير(٥) قصة طويلة عن حملة خالد بن سعيد والنجدات التى أرسلت له تحت قيادة عكرمة بن ابى جهل والوليد بن عقبة وانكسارهم فى موقعة مرج الصفر ورجوع خالد الى ذى المروة شمالى المدينة حينما جردوه القواد المار ذكرهم من عسكره ، على انه لا يمكننا تصديق هذه الأخبار لان مرجعاً واحداً يذكرها ولا يوثق كثيراً بصدق رواية هذا المرجع .

وقد أرسلت هذه الحملات فى أوائل عام ١٣ (٦٣٤) حسب قول معظم المؤرخين(٦) ، ولكن بعض علماء الافرنج(٧) يثبتون إرسالها قبل نهاية عام ١٢ (٦٣٣ — ٣٤) وهذا معقول وأقرب الى القبول لانه يعطى وقتاً كافياً للحوادث التالية ،كما سنبين لك فى الصفحات الآتية . ولربما كان أول صفر عام ١٣ تاريخ ارسال نجدة تحت قيادة ابى عبيدة(٨) ويذكر عدد من مؤرخي العرب أن أبا بكر وزع البلاد السورية على قواده حين سفرهم ، على أنهم يختلفون فى ذكر الاراضى التى خصصت لكل منهم(٩) ويتساءل كتبة الغرب فى صحة هذا فيقول أحدهم « وإذا كان هذا التوزيع صحيحاً فاما أن يكون أبو بكر قد جهل الصعوبات القائمة فى وجه

---

(١) مذكرة دى غوي ٢٤ ، لا يذكر لامنس سورية ص ٥٤ . ارسال ابى عبيدة :

(٢) انظر بكر ٣٤٤ ، هارتمن فى دائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص ٤-٩٠ . (٣) الطبرى ج ٤ ص ٢٠٧٩ ، ابن الاثير ج ٢ ص ١٥٥ ، ابو مخنف فى البلاذرى ١٠٨ ، والقدى ١٢ ، دحلان ٢٧ . (٤) اليعقوبى ج ٢ ، ١٥٠ ، دحلان ، ٢٢ ، ابو مخنف ، الواقدى ١٢ يقول ان أبا بكر أشار على عمرو أن يستشير أبا عبيدة ويذكر تأميره على المهاجرين والانصار - أهل المدينة - وتأمير عمرو أو يزيد - انظر أمير على ، ٣٦ . على أهل مكة ، وهذا مصدر نزاع فى الجيش . (٥) الطبرى ٢٠٨٠ - ٢٠٨٥ ، ابن الاثير ج ٢ ، ١٥٤ - ٥٥ .

(٦) عمر بن شبة فى الطبرى ٢٠٧٩ ، البلاذرى يذكر أول صفر عام ١٣ ص ١٠٨ ، ابن الاثير ١٤٥ ، دحلان ٢١ ، الفخرى ، وابن اسحق فى الطبرى ٢٠٧٨ فقط يقول فى عام ١٣ . (٧) بكر يقول فى خريف ٦٣٣ أو آخر عام ١٢ : لامنس سورية ٥٤ ، مذكرة دى غوي ٣٣ . (٨) مذكرة دى غوي ص ٤٠ .

(٩) ابو جعفر الطبرى ص ٢٠٩٠ يقول ان أبا عبيدة أمر على حمص ، ويزيد على دمشق ، وشرحبيل على الاردن وعمرو على فلسطين . ويقول ابو زيد فى الطبرى ٢١٠٧ — ٨ ان يزيد احتل البلقاء ، وشرحبيل وادى الاردن وابو عبيدة الجابية وعمرو العربات — ويوافق ابن الاثير ج ٢ ، ١٥٥ على رأى ابى زيد . ويوافق البلاذرى ، ١٠٨ على كلام ابى جعفر ولكنه لا يذكر أبا عبيدة .

قواده وظن أن سورية غير محمية ! وإما أن يكون قد باع جلد الدب قبل أن يقتله »(١)
قد يكون مؤرخونا قد بالغوا في طبيعة توزيع مثل هذا ولربما قسم أبو بكر الاراضى
على هذا الشكل ليتفشر المنافسات والمخاصمات بين القواد الفاتحين حينما تطأ أقدامهم
تلك الاراضى ، أو ليشجعهم ويجعل فيهم عامل الربح دافعاً إلى النصر .

— ٤ —

فتح فلسطين الجنوبية

وافتتح يزيد تبوك في طريقه ولما أتى الى فلسطين من جهة الغرب صعد التلال
التي تشرف على وادى العربه(٢) جنوبي البحر الميت وهناك فاجأ جيشاً بيزنطياً(٣)
يقوده سرجيوس بطريق (حاكم) قيصرية ، فانهزم البطريق وجيشه الى غزه ولكن
جيشاً عربياً داهمهم في داش وقهرهم وقتل سرجيوس نفسه(٤). ويقول البلاذرى(٥)
إن يزيد التحم مع البيزنطيين في داش ، وهى قرية من أعمال غزه (٦) اولا ، وبعد
أن تم له قهرهم ارسل ابا أمامة الباهلى ليقاتل جيوشهم المحتشدة في وادى العربه وعددها
ثلاثة آلاف تحت ستة قواد بحسب قول ابى مخنف(٧) وهناك لاقاها وقهرها .

اما عدد الجيش البيزنطي فانه مبالغ فيه وقد قيل انه كان مؤلفاً من بضع مئات
من العساكر أفتيها كثرة عدد المسلمين(٨) ولكن لا يمكننا الجزم بصحة هذه الأقوال
طالما فاه بها أناس يودون أن يحطوا من شأن أعمال العرب الفاتحين . ويذكر العلامة
دى غوي أن سرجيوس لم يقتل في داش بل في أجنادين كما نعلم من تحرير أرسله له
سوفرونيوس رئيس أساقفة القدس بعد ذلك التاريخ(٩) وبعض الكتاب لا يذكرون
هذه المواقع قط(١٠) على أن أبا حفص الشامى(١١) يذكر مستنداً الى بعض شيوخ
سورية أن موقعة العربه كانت أول موقعة التحم بها المسلمون مع البيزنطيين .

---

(١) مذكرة دى غوي ، ٣٦ (٢) وتستعمل العربات ايضا انظر الطبرى ، ٢١٠٨ . (٣) يقول بطر ، ١٤١ ان العرب كانوا يدعونهم « الروم » وكانوا هم يفضلون أن يدعوا بهذا الاسم . وكانوا يغضبون اذا دعاهم الناس « يونان » وكانوا يحسبونها اهانة . على أن كلمة « بزنطيين » هنا أصح وانسب . (٤) راجع بشأن هذا أبا زيد في الطبرى ٢١٠٨ لامنس « سورية » ٥٤ ؛ بكر ٣٠ ؛ ابن الاثير ٥٥ ، دحلان ٢٢ . (٥) البلاذرى ١٠٩
(٦) يقال لها داثن أيضا راجع الطبرى ٢١٠٨ ، مذكرة دى غوي ٣٠ . (٧) انظر البلاذرى ١٠٠ .
(٨) لامنس « سورية » ٥٤ : تيوفانس في مذكرة دى غوي ص ٣٤ يقول إن البيزنطيين كانوا ٣٠٠ .
(٩) مذكرة دى غوي ٣٤ . (١٠) منهم اليعقوبى ، سيف ، الواقدى ، ميور . (١١) البلاذرى ١٠٩ .

وأما تاريخ موقعة داش فان كتاب العرب لم يعينوه تماماً مع أنهم يذكرون عام ١٣ كتاريخ عمومى لهذه المعركة . ويرتأى دى غوبى أنها حدثت فى أواخر شهر ذى الحجة عام ١٢ (كانون الثانى ٦٣٤) ويثبت لامنس وبكر وقوعها فى شهر ذى الحجة من عام ١٢ (٤ شباط ٦٣٤) (١)

— ٥ —

مسير خالد بن الوليد الى سوريه

يقال انه لما وصل عمرو بن العاص الى جنوبى فلسطين تطلع الى الجيش البيزنطى فهاله عدده فكتب الى أبى بكر عن ذلك وطلب منه النجدة فكتب ابو بكر الى خالد فى العراق يستدعيه الى معونة اخوانه فى سوريه (٢) . وانما الحقيقة راهنة أن تيودورس شقيق هرقل ، الذى كان آنئذ فى حمص (٣) قاد جيشاً لجباً نزل به ثنية جلق فى جنوب غربى حوران (٤) ولربما استنجد عمرو وباقى المسلمين أبا بكر عندما رأوا أنفسهم فى خطر من تلك الكتائب (٥)

وهنالك مجال للجدال فى مسألة قيادة جيوش الاسلام المتحدة . فان بعض الذين يعتقدون بتأمير ابى عبيدة على جيوش الاسلام فى بادىء الأمر ، يرفضون تحرير أبا بكر الى خالد بأمر عال من لدنه يجعله قائداً عاماً لجيوش الاسلام فى سورية (٦) ويعطى البلاذرى ثلاثة آراء فى هذا الصدد فيقول « فيقال أن أبا بكر جعله أميراً على الامراء فى الحرب ، وقال قوم كان خالد أميراً على أصحابه الذين شخصوا معه ، وكان المسلمون اذا اجتمعوا لحرب أمره الامراء فيها لبأسه وكيده ويمن نقيبته » (٧)

---

(١) مذكرة دى غوبى ٤٠ ، بكر ٣٤٠ ، لامنس ـ سورية ـ ٥٤ ، (٢) راجع البلاذرى ١٠٩ ، بن اسحق فى الطبرى ٢١٠٧ ، ٢١٢١ : الواقدى ، ٢٠ (٣) يقول البلاذرى ، ١١٤ ان هرقل بقى فى حمص حتى اجنادين ، وآخرون يقولون انه هرب منذ البداءة الى انطاكية ، يقول ابن الاثير ان هرقل كان فى القدس وعرض التسليم على الاهالى فلم يقبلوا فذهب الى حمص وأرسل جيشاً تحت تذارق أخيه .

(٤) ابن اسحق فى الطبرى ، ٢١٠٧ ، لامنس ٥٤ . (٥) يقول اليعقوبى ، ١٥٠ ، ودحلان ، ٢٢١ أن أبا عبيدة هو الذى كتب الى ابى بكر ، ويقول سيف واتباعه ان طلب النجدة من ابى بكر كان اثناء اليرموك فكتب هذا الى خالد . انظر الطبرى ، ٢١١١ ، ابن الاثير ، ١٥٦ ؟ ميور ، ١٠٠ ، فايل فى تاريخ الخلفاء ج ١ ص ٤٠ يقول أن خالداً أتى بعد سقوط بصرى ومعركة اجنادين

(٦) يقول الواقدى ، ٢٠ ان كتاب الامارة وصل خالداً مع نعم بن مقدم الكنانى وكتب خالد الى ابى عبيدة من عزله مع عامر بن الطفيل ، دحلان ، ٢٣ يعطى الاخبار نفسها ٧ البلاذرى ١٠٩

ولنترك الآن مسألة القيادة حتى ذلك الوقت . وبعده الى ما يلى هذا من الفصول .

وبعض الأجانب (١) لا يذكرون كتاب أبى بكر الى خالد ويكتفون بالقول بأن خالداً ظهر أمام أسوار دمشق . ولربما يظنون أن خالداً أتى سوريا من طوع إرادته ، وهذا خطأ على ما نظن . وخصوصاً لما نعرفه من حب خالد أن يكون إفتتاح العراق على يده ومن حزنه لما أتاه أمر أبى بكر بالذهاب الى الشام (٢)

ويذكر عدد من الكتاب (٣) أن خالداً كان فى الحيرة لما أتته رسالة أبى بكر ومنها سار . ويذكر الواقدى (٤) وحده أنه كان يكاد أن يفتتح القادسية . وعلى كل فانه قبل أن يترك العراق جعل المثنى بن حارثه الشيبانى (٥) قائداً على ما بقى من الجند وسار ومعه عدد غير معلوم من العساكر يتراوح ما بين عشرة آلاف وبين خمسمائة (٦) على أن العدد الأول مبالغ فيه جداً . ويمكننا أن نحكم من فرقة العراق التى رجعت بعد فتح دمشق وكان عددها سبعمائة ، إن الكتيبة التى سار بها لم تقل عن الثمانمائة عداً إذا حسبنا أن مئة جندى قتلوا منها (٧)

أما تعيين تاريخ مسير خالد من العراق فتلك مسألة لم نجزم بها ويختلف ذلك التاريخ من محرم عام ١٣ الى ربيع الثانى من نفس العام (آزار — حزيران ٦٣٤) (٨) على أننا نجد الذين يذكرون التاريخ الثانى مخطئين اذا عرفنا أن معركة اجنادين (٩) التى شهدها كانت فى جمادى الاولى وأن المسافة تقتضى وقتاً طويلا (١٠) وأن كتيبة خالد أغارت على بنى غسان فى مرج راهط يوم فصحهم (١١) فبالنظر الى هذه الامور

(١) بكر ٣٤١ ، سوريه ٥٤٩ (٢) ابن اسحق فى الطبرى ٢١٢١ : فلما أخذ خالد كتاب أبى بكر يأمره بالمسير الى سوريه قال هذا عمل الاعيسر بن أم شملة (عمر بن الخطاب) فقد كره أن يكون فتح العراق على يدى (٣) البلاذرى ١١٠ ؛ ابن اسحق فى الطبرى ٢١٨١ ، سيف وابو جعفر فى الطبرى ٢١١٢ و ٢١٠٩ (٤) الواقدى ٣٠ (٥) الطبرى ٢١٢٢ ، دحلان ٢٣ ، يعقوبى ١٥٠ ، ابن الاثير ١٥٦ ، البلاذرى ١١٠ (٦) يقول سيف فى طبرى ٢٠٩٠ عشرة آلاف ، دحلان ٢٣ يقول تسعة الاف ، ابن الاثير ١٥٦ يقول ٨٠٠ أو ٥٠٠ أو ٦٠٠ أو ٦٠٠٠ أو ٩٠٠٠ ، ويقول أبو جعفر الطبرى ٢١٠٩ ، ٥٠٠ أو ٨٠٠ ، ويقول البلاذرى ١١٠ ، ٨٠٠ أو ٦٠٠ أو ٥٠٠ (٧) مذكرة فى يعقوبى ٣٠ (٨) يقول البلاذرى ١١٠ فى ربيع الثانى عام ١٣ ، وسيف فى الطبرى ٢٠٨٩ ، وأبو جعفر الطبرى ٢١٠٩ ، ودحلان ٢٣ يقول ان خالدا وصل اليرموك فى ربيع الثانى عام ١٣ ، يقول بكر ٣٤١ ان تاريخ وصوله الى دمشق كان فى نيسان عام ٦٣٤ أو صفر عام ١٣ (٩) أنظر كلامنا عنها من قبل (١٠) تستغرق المسافة بين الحيرة ودمشق شهراً اذا حسبنا أن خمسة أيام بين قراقر وسوى طبرى ٢١٢٢ (١١) طبرى ٢١٠٩ ، بلاذرى ١١٠

يمكننا قبول التاريخ الذى أرتآه دى غوى وهو صفر عام ١٣ (نيسان ، ٦٣٤) (١).

وهنا يتجلى لنا خطأ الذين يؤرخون مسير الجيوش من المدينة فى أوائل عام ١٣ لان سفر تلك الجيوش الى سورية وكتابة القواد الى أبى بكر فى طلب النجدة بعد وصولهم الى سورية ثم كتاب أبى بكر الى خالد — كلها حوادث تقتضى وقتاً طويلا لا يسمح به التاريخ المعطى (عام ١٣) ويسمح به التاريخ الذى يعطيه الآخرون وهو قبيل نهاية عام ١٢

ولا يتفق المؤرخون فى ذكر المدن التى أخذها خالد فى سيره الى سورية (٢) على أن النتائج التى وصل اليها دى غوى (٣) تفى بغرضنا هنا . فقد فتح خالد فى طريقه من الحيرة الى الشام المحلات الآتية : —

عين التمر فقراقر فسوى (٤) فأرك فتدمر فالقريتين فحوارين (٥) فمرج راهط. وهكذا . يظهر أن مستشرقاً لم يسلم بمرور خالد بدومة الجندل بخلاف البلاذرى؟ وهو يعتقد أن مدينة (دومة) التى افتتحها خالد كانت قرب الحيرة وليست دومة الجندل ، لان حمله من الحيرة الى دومة الجندل هى نوع من الخروج عن القصد الاول من تلك الحملة . ولكى يصل الى تلك المدينة عليه أن يختار بادية السماوة بكاملها وهذا العمل إسراف بالوقت والقوة .

وقد سار خالد من مرج راهط الى بصرى حيث التقى بالقواد الثلاثة يزيد وشرحبيل وأبى عبيدة ، فساعدهم فى فتح مدينة بصرى ثم ذهب وإياهم لينجدوا عمرو

---

(١) مذكرة دى غوى ٤٤-٦٢ ، البلاذرى ١١٠ يقول ما يلى : عين التمر فصندوداء أو حصونداء فمصيد فقراقر فسوى فأرك فدومة الجندل فكثم فتدمر فالقريتين فحوارين فمرج راهط فدمشق . ويقول ابن اسحق فى الطبرى ٢١٢٤ : عين التمر فقراقر فسوى فمرج راهط ، ويوافق أبو جعفر الطبرى على رأى البلاذرى ، ويحقق عين التمر ودومة الجندل بمذكرة دى غوى ٤٦ — ٥٠ (٤) يروى معظم مؤرخى العرب أن من فلاة بين قراقر وسوى أتى خالد الى رافع بن عميرة بعشرين ناقة فسمنها ومنع الماء حتى اذا ألجهدهن عطشاً أوردهن فشربن حتى اذا امتلأن عمد اليهن فقطع مشافرهن ثم كعمهن لئلا يجتررن ثم أخلى أدبارهن فكلما نزل منزلا بعد سيره نحر أربعة منهن فاخذ ما فى أكراشها فسقاه الخيل ثم شرب الناس مما حملوا معهم من الماء . ثم حفروا فى أصل شجرة عوسج فاستخرجوا عيناً فشربوا حتى روى الناس وقال أحد شعراء المسلمين

لله عينا رافع أنى اهتدى فوز من قراقر الى سوى
خمساً اذا ما سارها الجيش بكى ما سارها قبلك انسى يرى

(٥) تبعد حوارين ثلاث ساعات عن القريتين ويقول أبو حنيفة هى نفسها : ياقوت ج ٣ ، ٣٠٨

ابن العاص فى وادى العربة . على أن البيزنطيين غيروا مكانهم وقصدوا اجنادين (١) ويقول بعضهم إن خالداً ذهب الى دمشق وجعل مركزه فى الثنية وبعد بضعة أيام قصد الجابية ومن هناك ذهب وابى عبيدة الى بصرى ليجدا شرحبيل (٢) ويقول بكر ان خالداً عرف ضعف حركة المسلمين فى الجنوب فسار بدون أن يمسه أحد من أسوار دمشق الى جهة الجنوب، وهكذا برهن عن تضحية عظيمة وإنكار ذات؟ وهناك شاهد قواد المسلمين منهمكين فى منافعهم الشخصية قرب وادى العربة . وبعد أن التقى بهم ساروا جميعاً ليلاقوا البيزنطيين تحت قيادة تيودورس، وقد اتخذوا اجنادين أو جنابتين مركزاً لهم (٣) ويتفق هذا الرأى مع طبيعة الفتح الاسلامى، ويصور لنا القواد وجيوشهم بشكل غزاة يهمهم السلب فوق كل شىء. على أننا لانعلم مقدار هذا الحديث من الصحة

(٦)

موقعة اجنادين

وبعد ما انتصر العرب فى داش صاروا يغزون فلسطين الجنوبية حتى مدينة غزة . فأمر الامبراطور أخاه تيودورس أن يسير فى جحفل الى جنوبى دمشق بدون أن يكون له خطة معينة للهجوم، لان العرب لم يكن لهم قصد متضح فى غزواتهم، إذ كان كل قائد يرتاد المحل الذى فيه فرصة كبرى للكسب . ومن الممكن أن تكون جيوش تيودورس قد قهرت فرقة من العرب فى شرق الاردن ، ولكن هذا القائد تقدم الى جهة الجنوب حيث هدد الخطر أملاك البيزنطيين ، لان أورشليم لم يعد لها منفذ الى البحر ، وأصبحت غزة وقيصرية فى الخطر الشديد (٤) وفى هذه الظروف أتى خالد كما أشرنا سابقا (٥) والتقى مع العرب وسار الجيع ليلتحموا مع البيزنطيين فى معركة قرب اجنادين .

أما اجنادين ، مكان المعركة ، فانها مع أن موضعها غير معين بالضبط ، من كورة

---

(١) فتحت مدينة بصرى على دفع الجزية . بشأن هذه وغيرها راجع الطبرى، ابن اسحق ٢١٣٠ ، مذكرة دى غوى ٤٩ ، الواقدى ٢٥ يقول ان بصرى فتحت بخيانة حاكمها روماس

(٢) تبعد الجابيه بحريوم الى الجنوب شرق دمشق ، البلاذرى ١١٢ — ١٣ ، وتبعت خالد راية النسر التى كانت للرسول على الثنية ومن ذلك سميت ثنية العقاب . ثم فتح أبو عبيدة مؤاب فى البلقاء وجاء ، بكر ص ٣٤ ، ابن الاثير ٢: ٤٠٢ وغيره ممن يعتقدون أن اليرموك كان فى ذلك الوقت يقول ان خالدا ذهب من بصرى ليلاقى المسلمين على اليرموك

(٣) بكر فى تاريخ كمبردج للعصور الوسطى ج ٢ ص ٣٤١ (١) راجع الصفحة السابقة ، يقول الواقدى ص ٣٩ ان المسلمين كانوا قد ابتدأوا حصار دمشق ولما اقترب جيش البيزنطيين تحت قيادة وردان ، أجبرو

بيت جبرين (١) وبعضهم يضعونها بين هـذا المكان والرملة (٢) وغيرهم يقولون أنها بين القدس وغزة (٣) وكلا الرأيين على صواب، على أن الاول أضبط. ويختلف المؤرخون فى عـدد جيوش البيزنطيين فيبالغ البلاذرى فى قوله انهم كانوا مئة الف محارب (٤) ويقول لامنس عندما يتكلم عن ذلك الجيش، تلك الآلاف القليلة من حاميات المدن والعساكر الامبراطورية بدون تدريب حربى، لم تكن لتوقع الرعب فى قلوب العرب (٥) على أنه يبالغ فى قلة تنظيم الجيش البيزنطى وفى قلة عدده، ولا نعلم الى أى المصادر يستند فى قوله هـذا.

وانتصر العرب على الأعاجم، ولكن من كان قائدهم؟ وهـل كان لهم قائد واحد فى تلك المعركة؟ ذلك سر غامض مع ان بعض كتاب العرب (٦) يعترفون بقيادة خالد فى هذه المعركة. على انه ليس من المستبعد أن نرى فى خالد القائد المنتصر والشخصية البارزة فى تلك المناسبة وهذا راجع الى شجاعته وسطوته. وقد وقعت المعركة فى ٢٨ جمادى الأولى عام ١٣ (٣٠ تموز ٦٣٤) حسب قول عـدد من المؤرخين (٧)، على ان بعضهم يقدمونها أو يؤخرونها أسبوعا (٨) ويروى سيف بن عمرو وأتباعه انها حدثت بعد فتح دمشق ويضعون اليرموك مكانها، وسنرى كيف وقعوا فى الخطأ.

وصـارت فلسطين بعد انتصار العرب ميداناً حراً لأعمالهم المختلفة ولكن المدن ذات الحصون المتينة قاومت مدة طويلة. وتحملت الفوضى ربوع فلسطين كما يتضح لنا من خطبة صوفرونيوس فى أورشليم.

ومن الموافق فى هذه المناسبة أن نذكر آراء العلامة الكبير دى غويى فى موضع اجنادين وعدم تمييزها من اليرموك. يقول حضرته (٩) ان الرواية التى تجعل موقعة اليرموك فى هذه الآونة بدل اجنادين، قديمة لم يخترعها سيف بن عمرو. وأنه

أن يتركوا الحصار ويحاربوهم (١) يجوز أجنادين وأجنادين بفتح الدال ولكن الثانية أصح. راجع شأن موقعها فى كورة بيت جبرين معجم البلدان ج ١ ص ١٣٦

(٢) انظر ابن اسحق فى الطبرى ٢١٢٥، ابن الأثير ١٦٠ (٣) بكر. ٣٤١ يقول كرد على فى خطط الشام انها قرب القدس وهذا ليس بواضح (٤) فتوح البلدان ١١٣

(٥) لامنس «سوريه» ج ١ ص ٥٤، (٦) راجع مسير خالد الى سوريه

(٧) أبو زيد وابن اسحق فى الطبرى ٢١٢٢ و ٢١٢٦، يعقوبى ج ٢ ، ١٥١ ومؤرخون أجانب مثل فايل دى غويى، بكر. يقول جين ٣١٨، أنها حدثت فى ١٣ تموز عام ٦٣٣، ٣٠ ربيع الثانى عام ١٢، وهـذا ما لا يمكن تصديقه (٨) يعطى البلاذرى، ١١٤ هذه التواريخ للمعركة ١٨ جمادى الاولى، ١ و ٢ و ٢٨ جمادى الاخرى عام ١٣، والواقدى، ٥٩ يقول ٦ جمادى الاولى عام ١٣ (٩) مذكرة ص ٥٩، يقول ان أجنادين ليست مشتقة من كلمة «جند» ولكنها اسم مكان أصلى

لمن الواجب علينا أن نجد أصل هذه الرواية . يقول ابن اسحق ان اجنادين واقعة بين الرملة وبيت جبرين (١) ويضعها البكرى بين الرملة والخليل (حبرون) . وهنا تماما بين هذه المدن نجد « يرموث » القديمة التى كانت تدعى « يرموتشا » وحيث يعين المكتشف« روبنسون» موضع اليرموك . فاذا سلمنا بأن أجنادين هى قرب اليرموك (يرموث) ظهر النور فى حالك الظلام . إذاً فهنالك معركتان تدعيان اليرموك . فالأولى هى يرموك (يرموث) وهى موقعة اجنادين التى نحن بصددها ، والثانية هى يرموك (هيروماكس) وهى التى يذكرها الكتاب عادة ، والتى اتخذت اسمها من نهر اليرموك . وقد سبب إبدال يرموك (يرموث) بيرموك (هيروماكس) تلك الأغلاط فى تعيين التواريخ . وسبب الخطأ فى رواية سيف هو انه لم يفرق بين أخبار هيروماكس وأخبار اجنادين أو يرموك (يرموث) ، أى انه عرف بحدوث معركة اسمها اليرموك ، ولكنه لم يميز الاولى أى يرموث من الثانية أى هيروماكس ، فلذلك روى أخبار هيروماكس بدلا من يرموك أو اجنادين .

إن هذه النظرية خطيرة جداً ومفيدة ، لانها تشرح لنا أسباب الخطأ فى كثير من تواريخ العرب وكتب الافرنج الذين تعودوا على أن نقطة الاتصال ضعيفة بين القرية المدعوة يرموث والمكان المعروف باجنادين ، فاذا عرفنا أن المكان « اجنادين » كان يدعى أحياناً باسم المكان الذى قربه أى يرموث حينئذ لا بأس من قبول هذه النظرية لما فيها من الفائدة .

— ٧ —

حوادث هامة فى العالم الاسلامى

وفاة أبى بكر ومسألة قيادة الجيش

وبعد أن انتصر العرب فى موقعة اجنادين بوقت قصير ، توفى أبو بكر . وتاريخ وفاته متفق عليه تقريباً ، فالمؤرخون لا يختلفون بأنه حدث فى شهر جمادى الثانى عام ١٣ (آب ، ٦٣٤) . على ان هنالك اختلافاً فيما اذا كانت وفاته فى الحادى أو الثانى والعشرين من ذلك الشهر (جمادى) أى ٢٢ أو ٢٣ آب (٢) . ولم يكد

---

(١) الطبرى ، ٢١٢٥

(٢) الواقدى وحده يقول «ص ٥٥» انه توفى فى ٢٩ جمادى الاولى عام ١٣ ، أى أن أجنادين كانت فى ٣٠ جمادى الاولى أى ٢٣ يوما قبل وفاته . ابن اسحق فى الطبرى ٢١٢٧ يقول سبع أو ثمان ليال قبل آخر جمادى الثانى ، يقول ميور ٢١ جمادى الاول ولكن الاخرين يقولون فى ٢٢ جمادى الثانى ، ابن الاثير ١٦٠ ، أبو الفدا ١٦٢ ، أبو زيد فى الطبرى ١١٢٨ ، العقد الفريد ج ٢ ، ١٩٨ ، اليعقوبى ، ١٥٤ .

التاريخان على نفس النهار لانه باختلاف الحسابات و رؤيا القمر أعطى نفس النهار تاريخاً مختلفاً في محلات مختلفة . أما البلاذري الذي يضع معركة اليرموك بعد معركة اجنادين ، وسيف بن عمرو (١) ، فانهما يقولان ان خبر وفاة أبي بكر وصل المسلمين أثناء معركة الياقوصة على اليرموك .

وبما أن أبا بكر توفى في أواخر جمادى الثاني ، فان خبر وفاته يجب أن يكون وصل المسلمين في شهر رجب لأن العهد لم يكن عهد برقيات لاسلكية . لذلك وجب أن تكون المعركة حدثت في شهر رجب إذا صدقنا أقوالهم من أن خبر وفاة أبي بكر وصل أثناء المعركة . فاذا حدثت المعركة في رجب ، ونحن نعلم ان معركة اليرموك حدثت في رجب عام ١٥ ، فقد يكون سيف وأصحابه قد خلطوا فوضعوا معركة اليرموك (هيروماكس) بدل يرموك (يرموث) التي حدثت عام ١٣ للهجرة . و بالفعل فان البلاذري يعود فيذكر معركة اليرموك ثانية في رجب عام ١٥ بعد أن ذكرها عام ١٣ (٢) .

أما مسألة قيادة الجيوش الاسلامية فانها ذات شأن كبير في هذه الناحية ولها علاقة كبرى بفتح دمشق كما سنرى ، وقد شغل حلها أكثر من دماغ واحد . يقول عدد من كتاب العرب انه لما توفى أبو بكر أصبح عمر بن الخطاب خليفة ، فعزل خالد بن الوليد من القيادة العليا وذلك لعداوة شخصية بين الاثنين . يذكر بعض المؤرخين حكايتها مطولا و يروون القصص في شأنها ، وقد قيل أن أبا بكر كان أعطاه هذه القيادة حين مجيئه الى سورية ، وولى عمر ابا عبيدة مكانه . على أن كتابنا لا يتفقون على الوقت الذي تولى فيه ابو عبيدة القيادة العليا ، فبعضهم يقول انه كان قبل حصار دمشق وآخرون يقولون بعده . والذين يضعون معركة اليرموك في تلك السنة يقولون ان أمر عمر بتولية أبي عبيدة أتى أثناء المعركة مع خبر الوفاة ، ولكن أبا عبيدة كتمه حتى اتمام المعركة (٣) . ويقول دي غويي (٤) في هذا الصدد ان عدم التفريق بين اليرموك الأولى

---

(١) البلاذري ١١٤ ، سيف في الطبري ٢٠٩٦ ، وقابل في جين على هامش ص ٣٣٢

(٢) البلاذري ١٣٦ و ٣٠ ، سيف أبو جعفر وابن اسحق في الطبري ٢٠٩٦ ، ٢١٤٤ ، ٢١٤٦ . اليعقوبي ١٥٨ : ولم يخبر أبو عبيدة خالدا عن عزله الابعد انتهاء الحصار حين قال خالد ، رحمة الله على أبي بكر ، لو كان حيا ما عزلني . البلاذري ١١٥ ، ووصل الكتاب مع عامر بن أبي وقاص الى أبي عبيدة ، يقول بعضهم انه وصل والمسلمين محاصرين دمشق فكتمه أبو عبيدة . الواقدي ، ٤٦ ، يقول ان خالدا عزل بعد حصار دمشق . الطبري ٩٤ يقول ان أبا عبيدة تلقى خبر عزله بينما المسلمون يحاربون وأخبر خالد عن عزله بعد سقوط دمشق وأعطى خالد المعاهدة التي أنهت الحصار

(٤) مذكرة ص ٦٥

والثانية ومعرفة بعضهم ، ان احداهن كانت آخر مشهد لقيادة خالد،حمل بعض المؤرخين على الاعتقاد بعزله فى اليرموك الأولى . والواقع لم يكن هنالك معركة تدعى اليرموك ليعزل أثناءها . إن بعض كتابنا لم يفرقوا بين هذه المعركة التى هى معركة اجنادين ومعركة اليرموك الحقيقية فى رجب عام ١٥

ولنرجع الى الحقيقة ولنبحث فيما اذا كان خالد قائداً آنئذ ليعزله عمر من القيادة . يقول بكر (١) انه لم يكن هنالك قائد للجيوش الاسلامية معين من لدن المراجع العليا ، حتى ذلك الوقت،واذا كان خالد قد ظهر بمظهر القيادة ، فذلك لأن القواد الآخرين انتخبوه لشجاعته . وهنالك شيء بهذا المعنى فى احدى روايات البلاذرى التى ذكرناها آنفاً ، ويمكن تثبيت هذا الرأى اذا علمنا أن خالداً انتخب أميراً على الجيش يوماً واحداً وذلك يوم موقعة اليرموك كما رواها سيف (٢) . ويسلم بكر (٣) بأن خالداً كان قائداً أثناء المدة التى انقضت بين موقعة اجنادين ومحاصرة دمشق،ولكن لا يوافق على فكرة وجود قائد عام معين بصفة رسمية إلا بعد معركة اليرموك عام ١٥ عندما أرسل أبو عبيدة كقائد عام لتلك الجيوش . ويقول ميور (٤) ان خالداً حمل زملاءه من القواد الآخرين على تسميته قائداً فى يوم اليرموك كى لا توقد نار الحسد فى قلوبهم بنيله القيادة مباشرة بل لينالها برضى باقى القواد ، مع انه يقول قبل ذلك ان تعيين خالد قائداً لا يتفق مع فكرة القيادات المتفرقة التى منحها أبو بكر فى بادىء الأمر

ويذكر دى غوية أن القيادة كانت بيد عمرو بن العاص حتى مجىء خالد (٥) من العراق وربما ظلت كذلك حتى معركة أجنادين ، وذلك لأن ابن الأثير الذى يعين معركة اجنادين فى عام ١٥ — وكان عليه أن يضعها فى عام ١٣ — يذكر أن عمراً كان القائد (٦) وقد يجد الباحث اشارات الى هذه الفكرة فى بعض مؤلفات تقرأ فيها أن باقى الجيوش استشارت عمراً عندما أتت جيوش هرقل ، وان عمرواً هو الذى كتب الى أبى بكر عن الجيش البيزنطى الكبير (٧) ولكننا لا يمكننا الاعتماد على هذا الرأى الى أن نظفر ببراهين أكثر وأقوى .

---

(١) بكر ٣٤١ (٢) البلاذرى ١٠٩ ، وقد يكون انتخبه الامراء أميراً عليهم لبأسه ، ; سيف فى الطبرى ٢٠٩٢

(٣) بكر ٣٤٣ (٤) ميور ١٤٣

(٥) مذكرة دى غوية ، ٢٤ (٦) مع أن ابن الاثير يضعها فى عام ١٣ أيضاً

(٧) البلاذرى ١٠٩ ، سيف فى الطبرى ٢٠٨٧

واذا كان أبو بكر قد أمر خالداً أن يتولى قيادة الجيش عند قدومه الى سورية فليس ثمة من داع لان يعزله عمر (١) يقول دي غوبى إن من الخطأ تصديق قول كثيرين بان عمر ولى أباعبيدة القيادة مكان خالد حين أصبح خليفة بعد أبي بكر لانه كان في إمكانه أن يأمر بذلك العمل عندما كان الحاكم الحقيقى فى خلافة سلفه ، ولا يصعب عليه عمل مثل هذا وهو الذى حمل أبابكر على عقد اللواء ليزيد بن أبي سفيان بدل خالد بن سعيد فى بادىء الامر (٢) وهو الذى أشار الى أبي بكر بان يأمر خالداً أن يذهب لنجدة أخوانه فى سورية ولم يكن أمره هذا لانه كره أن تفتح العراق عن يد خالد كما أشار بعض مؤرخى العرب (٣) على أننا نقول رداً على رأي دي غوبى هذا بانه لم يكن فى إمكان ابى بكر أن يقبل كل نصائح عمر ، واذا كان قد عمل ببعضها ، فليس ذلك ببرهان على أن كل ما يقوله عمر كان يقبله أبو بكر ويأمر بتنفيذه

ولنوجه نظرنا الآن الى هذه النقطة . من قاد الجيوش الاسلامية بعد شهر رجب عام ١٣ وأثناء محاصرة دمشق ؟ لانه على كل حال هذا ما نريد الوصول اليه من كل هذا البحث , و معرفة من كان القائد أثناء الحصار مهم جداً وله علاقة قوية بطبيعة الفتح كما سنرى . يقول بعض مؤرخى العرب و كتابهم إن أبا عبيدة كان القائد بدل خالد ، على أن بعضهم يقرون ببقاء القيادة فى يد خالد الى ما بعد الفتح كما أشرنا سابقا (٤) ولكن هذا خطأ حسب رأي دي غوبى ، فهو يستند على يو تيشيوس بقوله أن عمر عزل عمرواً من القيادة وولى خالداً مكانه (٥) وهذا يخالف آراء أكثر كتاب العرب

ولكن بقطع النظر عن قيادة عمرو وعزله منها فانه يمكننا أن ندعم فكرة قيادة خالد بعد شهر رجب عام ١٣ وأثناء حصار دمشق ببضعة حجج تثبت هذه الفكرة كما فعل العلامة دي غوبى . إعلم أن خالداً هو الذى وقع المعاهدة التى تلت فتح دمشق عام ١٤ ، وليس ذلك فقط بل هو الذى صادق عليها وأثبتها فى شهر ربيع الثانى عام ١٥ عندما طلب منه الأسقف ذلك يوم خروجه الى اليرموك ، وقد كان أبو عبيدة أحد الشهود فقط على تلك المعاهدة (٦) وهذا صحيح حسب قول البلاذرى وهو ما يجعلنا

---

١ - مذكرة دي غوبى ٦٦—٦٧

٢ - راجع ما كتب من هذا المقال قبل

٣ - انظر هامش نمرو ٣ ص ٧٧ و٤، انظر هامش نمرو ٣ ص ١١٠ من هذا البحث

٥ - مذكرة دي غوبى ٦٧

٦ - البلاذرى ١٢٣ ، انظر أيضا ملحق هذا البحث

تاريخ الحرب الاهلية

فى روسيا

فى اكتوبر سنة ١٩١٧ ثار الروسيون ثورتهم الهائلة التى يعتبرها الكثيرون بدء عصر جديد فى تاريخ البشر

وقطعت الحرب الاهلية بعد ذلك عدة فترات تمتاز كل منها بصفات خاصة ، فمن ذلك فترة الحرب ضد بولونيا ، وهى التى قال فيها لينين ، إن القوة الاساسية التى ساقت بولونيا إلى محاربتنا هى بلا شك ضغط الدولية وبخاصة رأس المال الفرنسى ، وليست بولونيا — ومثلها فرانجل — إلا آلة فى يد الاستعماريين الفرنسيين . . . . إنا بهزيمتنا للجيش البولونى قد مزقنا صلح فرساى الذى ترتكز عليه جميع المناسبات والعلاقات الدولية فى الوقت الحاضر »

ومن الفترات المهمة أيضاً فى تاريخ تلك الحرب الاهلية فترة « كرونستادت » التى ابتدأت فيها حرب العصابات السياسية فتكونت حملات الرجعيين من ملاك الأباعد والرأسماليين « الوطنيين » ثم من كتائب الالمانيين والنساويين التى انتهت بعقد صلح برست ليتوفسك ، ثم من البرجوازيين الذين جندتهم انجلترا وفرنسا من روسيا والأمم المجاورة ، وقد أعلن تشرشل إذ ذاك تمجيده لتلك الجبهة التى اشترك فيها ١٤ شعباً ضد البلاشفة

•••

ولكى نفهم حقيقة الثورة الروسية الثانية سنة ١٩١٧ يلزمنا أن نلم بشىء من تاريخ الثورة الروسية الاولى سنة ١٩٠٥ — ١٩٠٦ وهى من أوضح الأمثلة لانقلاب الاضراب الاقتصادى إلى اضراب سياسى ثم إلى عصيان مسلح إلى قلاقل يحدثها الفلاحون

وقد بلغ عدد النواحى (المراكز) التى اشتركت فى حركة سنة ١٩٠٥ من يناير إلى ابريل ٨٥ ومن مايو إلى أغسطس ١٠٤ وفى سبتمبر وديسمبر ٢٦١ أى ٥٢ فى المائة من مجموع مراكز روسيا الاوروبية . أما فى سنة ١٩٠٦ فقد ابتدأت الحركة من يناير إلى ابريل بعشرين مركزاً وصلت فى مايو واغسطس إلى ٢٥٠ أى

٥٠ فى المائة من المجموع . ثم هبط عددها فى سبتمبر وديسمبر إلى ٧٢ مركزاً

وقد بلغ عدد الحوادث المسلحة فى سنة ١٩٠٥ حادثتين من ابريل إلى يونيه و٨٩ حادثة من اكتوبر إلى ديسمبر، وكان حزب البلشفيكى هو المنظم والقائد لهذه الحوادث

وقد انشىء حزب البلشفيكى سنة ١٩٠٣ بانقسام حزب العمال الروس — الاشترا كيين الديموقراطيين — الذى كان مجتمعاً فى لوندره إلى قسمين . قسم البلشفيكى أى الاكثرية برأسهم لينين وقسم المنشفيكى أى أقلية المجتمعين برأسهم مارتوف ، ونقط الخلاف الاساسية هى (١) أصر لينين على أن لايعتبر عضواً فى الحزب إلا من كان مشتركا فى احدى فروعه فى البلاد المختلفة، بينما أراد مارتوف أن يعطى الفرصة لجميع مفكرى البرجوازى وصغار البرجوازى المعارضين للحكم المطلق أن يعتبروا أنفسهم أعضاء بالحزب (٢) أرادت الاقلية (المنشفيكى) الائتلاف مع الاحرار (ليبرال) والاشتراك فى العمل مع البرجوازى ، على نقيض لينين الذى يعمل على متابعة الطبقة العاملة لكفاحها الثورى

***

وقد استفاد البلاشفة كثيرا فى ثورتهم الثانية من تجاربهم فى ثورتهم الاولى كما أنها هى التى علمت المجموع ما يلزم أن تقوم به من الحركات ، وهذا هو السر فى سرعة نجاحهم ، فقد بلغ عدد العمال المضربين ١١٤ الفا فى سبتمبر سنة ١٩١٥ ، ١٨٧ الفا فى اكتوبر سنة ١٩١٦ ، ٤٣٢ الفا فى فبراير سنة ١٩١٧

قال لنين ، ولولا ثورة سنة ١٩٠٥ و ١٩٠٧ والحركة الرجعية أى المضادة للثورة سنة ١٩٠٧ و ١٩١٤ لكان من المستحيل أن يتم ذلك التحديد لجميع طبقات الشعب الروسى والشعب المقيم فى روسيا ، ذلك التحديد الدقيق لعلاقات هذه الطبقات بعضها ببعض وبالحكم القيصرى، كما ظهر فى ثمانية أيام ثورة فبراير سنة ١٩١٧

إن هذه الثورة ذات الثمانية أيام — هى اذا جاز لنا أن نقول — قد لعبت بعد عشرات المحاولات والبروفات القومية ، فكان الممثلون يعرفون كل منهم الآخر كما يعرفون أدوارهم وأماكنهم من الالف الى الياء ، حتى أصغر الفروقات الضئيلة فى لاتجاهات السياسية وطرق العمل

وقد استفاد العمال فى المدن والفلاحون فى الارياف من تجارب الثورة الاولى فى حركاتهم من فبراير حتى انتصارهم فى اكتوبر سنة ١٩١٧ وقد قام العمال والجنود

يوم ٤ ابريل فى بتروغراد بمظاهرات هائلة جبارة فاصطدموا اصطداما دمويا بجنود البوليس وكتائب الحكومة المؤقتة. وهنا نشطت الرجعية وحاول الجنرال كورتيلوف أن يزحف على بتروغراد فى أغسطس فهزمه الثوار من العمال والبحارة والجنود وقبضوا عليه . وفى سبتمبر قررت مجالس السوفييت فى موسكو و بتروغراد بالاغلبية الساحقة ، القضاء على سياسة الحلول الوسطى والصلح مع البرجوازى .

وأخذ العمال يقدمون مطالبهم المتضاربة المشتبكة كطلب الرقابة على العمال وتقليل أرباح أصحاب المصانع وملكية الدولة للمشروعات، وتسليم الارض للفلاحين .

لم يكن العامل يكافح من أجل مصلحة طائفية لا غير ، بل كان يعمل كزعيم للفلاحين والجنود وذلك من الاهمية بمكان . وغدت الجنود التى أنهكتها الحرب والتى كانت تطالب بالسلام بأى ثمن تغادر جيش الحكومة فى سبتمبر وأكتوبر لتحارب بيأس وغلظة ضد الحكومة . ووصل تمرد الفلاحين فى القرى الى درجة الحرب الاهلية .

قال لينين ، لقد وجهنا كل همنا فى أكتوبر الى أن نكنس بضربة واحدة ذلك العدو الازلى للفلاح ، ونعنى بهم سادة الاقطاعيات وملاك الاباعد . لقد كان ذلك كفاح الفلاحين كافتهم اذ لم يكن قد وجد فى أوساط الفلاحين حدود بين البروليتاريا (أى الفقراء الذين يعملون بالاجر) وانصاف البروليتاريا وصغار الفلاحين والبرجوازى .

لقد ازدادت ثورة أكتوبر سنة ١٩١٧ بما لدى الشعب من التجارب التى اكتسبها فى الثورة الاولى كما وسعت من نطاق حركات جموعه وحولت حربه الاستعمارى (فى الحرب العظمى) الى حرب أهلية سنة ١٩١٨ — ١٩٢١ . وكان لينين إذ ذاك يتساءل باهتمام عما اذا كانت بروليتاريا المدن (العمال) ستتمكن من أن تجذب معها بروليتاريا الارياف ، فقد كانت جموع الفلاحين قبل ثورة اكتوبر ، بل واثنائها والى انتهاء الحرب الاهلية — تتذبذب بين البرجوازى والبروليتاريا .

قال لنين ، ان الذى خبر حياة القرى واحتك فيها بجموع الفلاحين لابد أن يقول : إن ثورة اكتوبر فى المدن لم تصل الى القرى بشكلها الكامل الا فى خريف سنة ١٩١٨ .

ولكى نفهم مقدار اتساع وحدة ثورة أكتوبر والحرب الاهلية التالية لها والتى دامت ثلاث سنين سنة ١٩١٨ — ١٩٢١ يلزمنا أن نلقى بنظرة على تلك التغييرات التى أصابت الشئون الاقتصادية والسياسية فى تلك البلاد قبل ذلك

فقد عمل ستوليبين مدة رئاسته للوزارة سنة ١٩٠٦ — ١٩١١ على تكوين طبقة

من البورجوازى فى القرى يكون وجودها معززاً للحكم القيصرى. فعرض بنحو ٢٥ فى المائة من أملاك الأشراف للبيع وسمح للفلاحين أن يعتبروا أنفسهم مالكين للاراضى التى كانت ملكا شيوعياً للقرية، وبهذا الشكل ازدادت فوارق الطبقات بين مختلف الفلاحين أنفسهم.

ثم أدخل من التنظيم فى الشئون الحركية وغيرها ماجعل المزارع الاقطاعية تتقهقر ليحل محلها المزارع الرأسمالية. وكذلك فعلت الاحتكارات واتحادات أصحاب المصانع بالصناعة فنشأت البرجوازية الرأسمالية فى الصناعة والتجارة. وزاد فقر الطبقات العاملة فأوثق مابين أفرادها وطوائفها من الصلات

وجاءت الحرب العظمى فزادت عملية تنازع الطبقات قوة وسرعة فتركزت العناصر الرأسمالية فى قطب، والطبقات العاملة فى القطب الآخر. وقد ظهرت علاقات هذه الطبقات بعضها البعض بصورة واضحة فى ثورتى فبراير وأكتوبر سنة ١٩١٧ ومن بعدهما. وفى الحروب الأهلية سنة ١٩١٨—١٩٢١ التى كان الحزب البلشفيكى يتولى فيها قيادة العمال والفلاحين ضد رأسمالى ذلك الأقليم البالغة مساحته سدس مساحة الدنيا.

وهذا هو السر فى استئصال هؤلاء الرأسماليين ضد الثوار برغم مساعدة الانجليز والفرنسيين والامريكان واليابانيين لهم لا بالمال والذخائر والقواد وتدبير الدسائس والمؤامرات وإشعال الفتن فقط. بل بإرسال الكتائب المسلحة لمحاربة جمهورية السوفيت.

وقد تكلم لينين فى يوليه سنة ١٩١٨ عن القوات الاجنبية الحربية فى المورمان والجبهة التشيكوسلوفاكية وجبهات التركستان وباكو واستراخان، قال «وانها لخطة واضحة، منظمة ومقصودة دبرها ممثلو الاستعمارية الانجليزية والفرنسية بعناية ومكثوا أشهراً يعدون ما يلزم لتنفيذها — ومرمى هذه الخطة ايجاد ميدان رجعى حربى ومالى أمام جمهورية السوفيت».

على أن الروس قد انتصروا فى كل هذه الجبهات، لأننا برهنا على أن عمال دول الحلفاء أقرب الينا منهم الى حكوماتهم. ولأننا أخذنا من الحلفاء جنودهم، ولاننا عرفنا أن توجد العلاقات الصحيحة بين الحزب الشيوعى القائم بالقيادة وبين البروليتاريا الثائرة والجمهور، وأنزلنا الهزيمة بأعدائنا الاقوياء، لان الوفاق لم يكن سائداً بينهم، ولا ممكناً سيادته بينهم وكانوا كلما زادوا شهرا فى محاربتنا أوقع ذلك فيهم انحلالا مستمراً.

***

وقد عانى الروس فى حربهم الاهلية من المصاعب شيئاً كثيراً ولاسيما فى حربهم ضد بولونيا ولم يكن لهم فى أوائل سنة ١٩١٨ جيش على الاطلاق وعانى القوم فى ايجاد هذا الجيش صعوبة كبيرة لانهم لم يكونوا قد فكروا فى أمره قبل ذلك حتى ولا من الوجهة النظرية .

ولكن هذه الصعوبات قد ذللت فى بحر العام وساعد على ذلك وجود كميات كبيرة من الاسلحة والعمال الدارسين القواعد الحربية ونشر الدعوة السياسية فى جبهة القتال.

وقد دامت هذه الحرب الاهلية التى أثارها الحلفاء ثلاث سنين اشتركت فيها كل قرية وكل مصنع، وقد أحصى بعض ماخرب فيها فاذا به ٣٥٩٧٠ جسرا عاديا و٣٦٧٢ جسراً من جسور السكك الحديدية و٤٣٣١ محطة تلغرافية و٨٦٥٠٠ فرسخ من الاسلاك البرقية . أما فى الزراعة فقد نقصت مساحة الارض المزروعة بالحبوب فى سنة ١٩٢٠ - ٢٣ فى المائة عما كانت عليه سنة ١٩١٦ ونقصت الارض المزروعة بالقطن والدخان وغيرها من نباتات الصناعة ٥٦ فى المائة وأما محصول الفدان الواحد فقد كان فى سنة ١٩١٧ ينتج ٩٢ فى المائة من محصول قبل الحرب فهبط فى سنة ١٩٢٠ الى ٧٠ فى المائه فقط . وهبط مقدار الاغنام فى سنة ١٩٢٠ الى ٥٥ فى المائة والبقر الى ٧٩ فى المائه عما كان عليه فى سنة ١٩١٦

وهكذا تقهقرت الصناعة كثيراً فقد هبط مجموع الزيادة من ١٠٠ فى المائة سنة ١٩١٣ الى ٧٧ فى المائة سنة ١٩١٧ ثم الى ٣٥ فى المائة سنة ١٩١٨ ثم الى ١٨ فى المائة سنة ١٩٢٠ وكان مقدار ما ينتج من الاصناف الآتية بالنسبة الى ماقبل الحرب كالآتى : الحديد الخام ٢ر٤ فى المائة والنحاس فى المائة والازوت ٤ ر٤ فى المائة وبناء عربات السكك الحديديه ٢ر٤ فى المائة وقاطراتها ٨ر١٤ فى المائه والمحاريث ٣ر١٣ فى المائة والسكر ٧ر٦ فى المائة والخيوط القطنية ٥ فى المائة

وهبطت الصناعات الصغيرة الى نصف ماكانت عليه قبل الحرب وبلغ ما يلزم اصلاحه من قاطرات السكك الحديدية ٥٧ فى المائه ومن عرباتها ٢٣ فى المائه

ويمكن تلخيص هذه الخسائر كالآتى . نزلت المحاصيل الزراعية فى آخر الحرب العظمى الى ٨٨ فى المائة وفى آخر الحرب الاهلية الى ٦٢ فى المائة عما كانت عليه قبل الحرب والصناعة الى ٧٧ فى المائة فى آخر الحرب العظمى و١٨ فى المائة فى آخر الحرب الاهلية

ولقد كان الجيش الاحمر يتلقى وحده ٢٥ فى المائة مما تنتجه البلاد من الدقيق و٤٠ فى المائة من علف الحبوب ومن الدهن والصابون والانسجة القطنية و٦٠ فى المائة

من اللحوم والاسماك والسكر و ٩٠ فى المائة من احذية الرجال و ١٠٠ فى المائة من الدخان

هذا ولن نفهم تاريخ الحرب الاهلية جيدا الا اذا أرجعناها من حيث مميزاتها وتطورات سيرها الى القواعد الاقتصادية . فقد تأخرت الصناعات الكبيرة فى ذلك العهد وتأخر معها بالتبعية صناعة الآلات الحربية وانما انتفع المقاتلون بما لديهم من احتياطى الحرب العظمى وما كانوا أحرزوه من الغنائم ثم من الاقتصاد فى صرف الاسلحة .

تقهقر انتاج البنادق سنة ١٩٢٠ الى ½ ما كانت عليه سنة ١٩١٧ والمدافع الرشاشة والرصاص الى أقل من النصف ووصل عدد القاطرات وعربات السكك الحديدية الى النصف ، ومع ذلك فقد أدت مهمتها فى نقل الجيوش وتموينها بكفاءة زائدة

وكان عدد الجيش فى الحرب الاهلية أقل من نصف عدد الجيش القيصرى مدة السلم وكان سلاحه البنادق والمدافع الرشاشة ولم يكن للطوبجية فيه دور كبير

ومن اسباب تقهقر الصناعات الحربية فى الحرب الاهلية بالنسبة لما كانت عليه فى الحرب العظمى هى ان الاخيرة كانت حربا بين رأسماليى العالم ، وكان هؤلاء يمدونها بأموالهم وكان النظام الاقتصادى الرأسمالى ثابتا . بينما النظام الاشتراكى لم يكن قد تأسس فى روسيا بعد حين نشوب الحرب الاهلية فيها ، يضاف الى ذلك أن جبهة القتال فى الحرب العظمى كانت ثابتة الى حد كبير بعكسها فى الحرب الاهلية فقد كانت كثيرة التنقل وكانت الحرب تأخذ أحيانا شكل حرب العصابات

* * *

وتعتبر التجارب التى وقعت فى هذه الحرب ذات أهمية عظيمة . فقد كانت مساحة جغرافية كبيرة مثارا للانقسامات القومية والطبقية ، وكان الجيش الاحمر يتحرك بسرعة فيضرب جيشا معاديا ثم يتحرك من قبل أن يجهز عليه ليضرب جيشا يكون قد تكاثر عدده فى مكان آخر . وقد كانت هذه العمليات فى نفس الوقت كفاحا لأجل المواد الخام ، اذ كانوا فى الاوقات المناسبة يقصدون الجهات الغنية بالقمح والقطن والفحم والنفط الخ

ومن مميزات هذه الحرب طول جبهة القتال فيها فقد بلغ طولها ٨٠٠٠ كيلومترا ، بينما جبهة قتال الجيوش النمساوية فى الحرب العظمى لم يزد على ١٥٠٠ كيلو مترا .

كان الناس أبان الحرب العظمى يتحدثون عن السرعة التى زحف بها جيش الجنرال فون كلوك مسافة ٥٢٠ كيلو متر من اكس لاشابل الى جنوبي المارن بمعدل ٢٣ كيلو متر فى اليوم . وكذلك قطع الجيش الاحمر ٢٥٠٠ الى ٢٨٠٠ كيلو مترا فى مطاردته لجنود كولتشاك من أومسك الى اركوتسك بسرعة معدلها ٢٠ الى ٢٥ كيلو متر فى اليوم وكانت سرعته أثناء قضائه على جيش فرانجل تتراوح بين ٤٠ و ٥٠ كيلو مترا فى اليوم

وقد نشأت هذه السرعة من استعمال أدوات النقل التى عند المزارعين وأحيانا القطرات والسيارات وكذلك من تطوع فلاحى الجهات التى كان يمر فيها الجيش فيسدون ما به من النقص فى « المواد الانسانية » وكذا من كثرة عدد الخيالة الذين لعبوا دورا عظيم الاهمية فى هذه الحرب نظرا لما كان يملأ قلوبهم من الحقـــد والرغبة فى الانتقام

وكيفما كان الحال فأن هذه الحرب قداحتوت من التجارب والتطورات ما يجعلها جديرة بالدرس والمراجعة

حياة لينين

قتل اسكندر الثانى فى مارس سنة ١٨٨١ . وفى نفس اليوم بعد مرور ٦ سنوات بالضبط أى سنة ١٨٨٧ ذهب الطالب الاشتراكى الكسندر أوليانوف الشقيق الاكبر للنين لقتل الاسكندر الثالث بالقنابل فقبض عليه وشنق مع أربعة من رفاقه فى قلعة شلوسلبرج وقضى بذلك على حزبهم الثورى المسمى « ارادة الشعب »

التحق لينين بكلية الحقوق فى قازان ثم رفت منها بسبب « الاشتراك فى الثورة » فذهب الى جامعة بطرسبورج ونال منها أجازة الحقوق واشتغل بالمحاماه بضعة أيام فقط ثم هجرها « ليحترف أجازة الثورة » ثم اشترك فى تكوين « جماعة النضال لتحرير طبقة العمال » التى وزعت المنشورات المطبوعة ونظمت أول اعتصاب للعمال . ثم قبض عليه وارسل الى المنفى . وفى عام ١٩٠١ أصدر مع آخرين جريدة « الشرارة » الثورية . وبعد عامين انقسم الحزب الاشتراكى الديموقراطى (المؤسس سنة ١٨٩٨) الى شعبتين وهما البلشفيك أى الاكثرية والمنشفيك أى الاقلية، فأصبح لينين زعيم البلشفيك وأصدر جريدة « الى الامام »

وفى عام ١٩٠٥ بدأت الثورة الروسية الاولى . على أن سوفييت نواب عمال بطرسبورج كان تابعا للمنشفيك وزعيماها كروستاليوف نوسار وتروتسكى

وفى عام ١٩٠٧ رحل لينين الى الخارج ثانية فكان كما كان كارل ماركس فى هجرته يقضى ١٥ ساعة يوميا فى دار الكتب جعلته من أعلم رجال القرن العشرين إطلاقاً . وقد أصدر وهو فى الغربة عدداً كبيراً من الرسالات والصحف وفى عام ١٩١٢ ذهب الى كراكاو ليدير الحركات الشيوعية

عندما أعلنت الحرب كان لينين فى النمسا فاعتقلته الحكومة ثم أطلقت سراحه فسافر الى سويسرا لنشر الدعوة وأحدث فى كينتال ثورة مسلحة لانهاء الحرب بين الشعوب وبدئها بين الطبقات . وفى سنة ١٩١٧ سافر الى روسيا ـ عن طريق ألمانيا ـ وألقى فى ابريل خطبة فى مجمع العمال والجنود بطرسبورج فلم تلق نجاحا ، وفى يوليه سنة ١٩١٧ أحدث هياجا ضيق النطاق ثم هرب الى فنلنده وعاد منها ثانيا فى اكتوبر ثم عقد الروس صلح برست ليتوفسك واشتعلت لظى الحرب الاهلية فى روسيا التى انقسمت الى بضعة جمهوريات

تأثير لينين فى الخارج

فى سنة ١٩١٨ حضرت الى روسيا وفود المؤيدين من الهند والافغان وزنزيبار ومصر وغيرها من البلاد الشرقية لتهنئ الجمهوريات السوفييتية عن تمنيات التشكيلات الشيوعية التى أوفدتها

وفى ايطاليا والنرويج أيضا قرر الحزب الاشتراكى فيهما قبول مبادىء الدولية الثالثة ، وكانت جريدة الافانتى تبيع مدالية فيها صورة جانبية للينين وأخرى وجهية له وأخذت جرائد أخرى تدعو لاقامة اضراب عام فى يوم ميلاده ، وأخذ بعض العمال الايطاليين يطلقون اسمه على من يلدونه من أولادهم . وفى ألمانيا ترك النائب كارل ليبكنشت الحزب الاشتراكى الديموقراطى الذى مكث فى عضويته عشرين عاماً ، والذى يرجع الفضل فى شهرته وتزايد أعضائه الى والده ، وذلك ليعتنق المذهب الشيوعى .

وفى فرنسا أخذ النائب جان لونجيه يتكلم عن « الثورة الروسية الباهرة » ، وأخذت جريدة الاومانيتيه ـــ وقد كانت اللسان الرسمى للاشتراكية الديموقراطية الفرنسية ـــ تكتب عن « عبقرية » و « قوة الاختراع الفلسفى » و « حدة نظرات » و « الروح الثورية الجديرة بالاعجاب » التى عند السياسى الثورى الكبير .

وفى انجلترا أيضا أخذ آرثر رانسوم (الذى كان مراسلا للمانشستر جارديان فى

مصر) يقول ان صفحة التاريخ الذى خطه البلشفيك للأجيال المقبلة « ناصعة البياض مثل ثلوج روسيا »

كتاباته وأفكاره

أخرج سنة ١٩٠٢ وهو خارج بلاده رسالة « ما العمل ؟ » حض فيها على إيجاد ثوريين محترفين ، يحترفون اثارة الثورات وفن مكافحة البوليس السياسي . ولقد أفلح فى أن يجعل من نفسه مهيجاً شعبياً فنياً أى محترفاً ، يشهد بعبقريته فى ذلك كل من بصر به يلقى خطابه سنة ١٩١٧ من كشك فندق كشينسكى ، وطالع كتاباته فى البرافدا ، ثم شاهد تأثير هذه الخطابات والكتابات التهييجية ، وما أوقعته فى الشعب والجيش الروسى من الاضطراب

وفى سنة ١٩٠٥ قرر الحزب البلشفيكى المنعقد برئاسته فى لندن قراراً جاء فيه « ان البولشفيك يريدون الشعب ، أى البروليتاريا والفلاحين على محاسبة حكم الفرد والارستوقراطية بطريقة سوقية (رعاعية) ، وذلك بأبادة أعداء الحرية من غير شفقة وقمع مقاومتهم بالقوة وعدم السماح بالوراثة اللعينة للاسترقاق والآسيوية و « اهانة الانسانية »

فلما هزمت ثورة سنة ١٩٠٥ شرع الكثير من الاشتراكيين والشيوعيين فى روسيا يبحثون لأفكارهم الاجتماعية عن أساس فلسفى غير المادية التى بشر بها ماركس وانجلز

وشعر لينين بما فى ذلك من خطر ، فلوى عنانه شطر دار الكتب الباريسية وعكف على دراسة الفلسفة الرأسمالية ، ثم أخرج سنة ١٩٠٨ كتاباً يصفه زينوفييف بأنه « أول كتاب فلسفى يبسط النظرات الأساسية للشيوعية »

تنبؤاته

أعلن لينين فى بدأ الحرب أن الثورة ختامها قال : « ليست الحرب بنت الصدفة ولا هى خطيئة كما يعتقد قساوسة المسيحيين . وانما هى طور لامفر منه من أطوار الرأسمالية . وهى أيضاً كالسلم من حيث أنها شكل معلل من أشكال الحياة الرأسمالية أما الامتناع عن تأدية الخدمة العسكرية والاضراب عن المحاربة وهلم جرا . كل ذلك حمق وسخافة وحلم نفس جبان ، عن مكافحة أسلحة الاغنياء بدون سلاح وازالة

الرأسمالية بدون حرب أهلية مريرة أو جملة حرب . ان نشر الدعوة الى حروب الطبقات أبان الحرب هو واجب اشتراكى . والعمل الذى من شأنه أن يبدل حرب الشعوب بحرب أهلية هو العمل الاشتراكى الوحيد فى فترات المشادات الاستعمارية التى يقيمها الاغنياء من جميع الشعوب ..

قد ماتت الدولية الثانية، هزمتها سياسة النفعية .. الدولية الثالثة تقوم بتنظيم قوى البروليتاريا (أى طبقة العمال) للهجوم الثورى ضد الحكومات الرأسمالية وتنظيم الحرب الاهلية ضد برجوازى (أى أغنياء) جميع الشعوب

أهواؤه وصفاته

لم يكن لينين من عبيد الشهوات ولاغواة الفخفخة . يشهد بذلك كل من عاشره قبل الحرب أو بعد قبضه على ناصية الحكم وامتداد نفوذه على ملايين الجنيهات التى كان يستطيع أن يصرفها حيث شاء . ويقول عنه اعداؤه أنه « الشيوعى الوحيد الذى لم يصبح من أصحاب الثروات »





غلتون

١٨٢٢ – ١٩١١

صاحب المذهب المعروف فى توارث النبوغ

ولد فى ١٦ فبراير سنة ١٨٢٢ . وجده مستر اراسموس داروين الشاعر والعالم الطبيعى المعروف، كان من أولاد عمومته مستر شارلز داروين صاحب كتاب أصل الأنواع ، وأكبر معلم فى العلم الطبيعى الحيوى ظهر خلال القرن التاسع عشر .

بعد أن قطع مرحلة التعليم الابتدائى فى مدينة « برمنجهام » التحق للدرس فى مستشفى هذه المدينة ، ثم فى جامعة « كنجز » فى لندن ليكون طبيباً . غير أنه بعد أن حصل على درجته العلمية من كلية « ترينيتى » Trinity بكمبردج سنة ١٨٤٣ غير متجهه الفكرى . فساح من ١٨٤٥ إلى سنة ١٨٤٦ فى السودان ، وفى سنة ١٨٥٠ استكشف مع صديقه الدكتور « جون اندرسون » كثيراً من مجاهل « دامارالاند » Damaraland – وبلاد « الاوفامبو » Ovampo فى افريقية الجنوبية الغربية ، مبتدأ رحلته من خليج « وولفش » ، وكانت هذه البقاع لم تستكشف من قبل ولم يعرفها الفاتحون الجغرافيون حتى عهد غلتون . فلما ظهرت نتائج رحلته مطبوعة (١) بادرت الجمعية الجغرافية الملكية باهدائه مداليتها الذهبية سنة ١٨٥٣ .

أما كتابه « فن السياحة » (٢) فنشر لأول مرة سنة ١٨٥٥ . وفى سنة ١٨٦٠ زار شمال اسبانيا ونشر نتائج ملاحظاته التى استجمعها فى طبيعة هذه البلاد وأهلها فى أول سلسلة من الكتب قام هو مشرفاً على نشرها (٣) . غير أنه رجع بعد ذلك إلى علم الارصاد (٤) وكانت نتيجة اكبابه على هذا الموضوع أن اخرج كتابه المعروف Meteorographica ونشره سنة ١٨٦٣ . وكان البحث أول بحث جدى فى سبيل تحقيق ماتطلع اليه علماء الارصاد فى استنباط طريقة يمكن بها تسجيل التغييرات الجوية فى آفاق متسعة مترامية الاطراف . كما أنه قد بث فى هذا البحث

---

(1) Narrative of an Explorer in Tropical Africa.
(2) The Art of Travel; or Shifts and Contrivances in Wild Countries.
(3) Vacation Tourists.
(4) Meteorology.

أول فكرة صحيحة فى نظرية مضادات الأعاصير . وكان غلتون إذ ذاك عضواً فى « جمعية الارصاد » ثم فى « مجلس الارصاد » الذى الف على أثر انحلال الجمعية الأولى وظل عضواً فيه ثلاثين سنة متوالية . غير أن عظمة « غلتون » الحقيقية تقترن بابحاثه الانثروبولوجية ، ومبتكراته فى علم الوراثة . ففى سنة ١٨٦٩ نشر كتابه المعروف « توارث النبوغ : سنه ، ونتائجه (١) فاحدث هذا الكتاب ضجة كبرى فى عالم العلم الطبيعى ، كما تلاقفته أيدى الاطباء فى انحاء العالم المتمدين . ثم عقب على هذا الكتاب بآخر عنوانه « رجال العلم الانجليز : طبيعتهم وتطبعهم »(٢) وقد نشر سنة ١٨٧٤ ؛ ثم كتابه بحث فى المواهب الانسانية وتطورها (٣) سنة ١٨٨٣ ، وبحل تاريخ الحياة سنة ١٨٨٤ ومقررات المذاهب العائلية سنة ١٨٨٤ ، والوراثة الطبيعية (٤) سنة ١٨٨٩

٭٭٭

ان الفكرة فى أن الواجب على المصلحين أن يتموا طريقاً نظامياً لتحسين النوع الانسانى ، بوقف تناسل الطالحين ، والعمل على زيادة نسل الصالحين اجتماعياً ، قد طرأت على ذهن غلتون ونشرها سنة ١٨٦٥ ، ثم عاود البحث فيها سنة ١٨٨٤ مستعملا فى ذلك اصطلاح « اليوجينية » (٥) لاول مرة فى كتابه المواهب الانسانية .

وفى سنة ١٩٠٤ أسس فى جامعة لوندرا معهداً للبحث فى هذا الموضوع وزيادة أوجه المعرفة فيه حدده تحديداً دقيقاً اذ وقف البحث فيه على درس العوامل الخاضعة للاثر الاجتماعى والتى يمكن أن تحسن من صفات السلالات فى خلال الاجيال القادمة أو تصدها عن ذلك ، من الوجهتين الطبيعية والعقلية

ومن أكبر آثاره أنه أحد المبتكرين لفكرة استخدام بصمات الاصابع للدلالة على المجرمين . ونشر فى هذا الموضوع ثلاثة كتب متوالية (٦)

وانتخب عضوا فى الجمعية الملكية سنة ١٨٦٠ ونال مداليتها سنة ١٨٨٦ ومدالية داروين سنة ١٩٠٢ ودرجة شرف من اكسفورد سنة ١٨٩٤ وأخرى من كمبردج سنة ١٨٩٥

---

(1) Hereditery Genius: its Laws and Consequences.
(2) English Men of Science, their Nature and Nurture
(3) Inquiries into Human Faculty and its Development
(4) Natural Inheritance.
(5) Eugenics.
(6) Finger Prints ; Decipherment of Blurred finger prints ; Finger Print Directories.

كارل ماركس

واهم نظرياته الفلسفية والاقتصادية

محاضرة ألقاها بجامعة فرايبورج الاستاذ الدكتور كارل ديل

اشتراكية الازمان الغابرة

وجد التفكير الاشتراكي والنظريات والحركات الاشتراكية بل والاحزاب الاشتراكية منذ قرون عديدة ، ولكنها كانت تختلف عن مثيلتها فى الوقت الحاضر من حيث كونها (١) حركات موقته (٢) يقوم بها جماعات صغيرة (٣) تحمسا لافكار يثيرها بعض من يدعون الى المثل العليا ، أو تحمسا لاسباب دينية مثل حكومة اليسوعيين فى براجواى بامريكا الجنوبية (٤) وكان الذين يقومون بالحركات الاشتراكية ، قوم من العبيد الارقاء وآخرون من الفلاحين المستعبدين وكانوا يكافحون للحصول على حريتهم الشخصية لا لأجراء انقلاب جوهرى فى طريقة

كارل ماركس

الانتاج (٥) وكانت كل فئة تظهر وتختفى حسب ظروفها الخاصة . فلم يكن هناك فكرة عن توحيد جبهة النضال وتكوين الدولية التى دعا اليها كارل ماركس فى قوله المأثور « أيتها الطبقات العاملة فى العالم ، اتحدى »

تاريخ حياة كارل ماركس

ويؤخذ مما كتبه الزعيم الاشتراكى فريدريش انجلز عن تاريخ حياة صديقه واستاذه وزميله كارل ماركس ، أن هذا قد ولد فى بلدة ترير فى ٥ مايو سنة ١٨١٨ وفى سنة ١٨٢٤ انتقل هو وأبوه هاينريش ماركس (من أكبر رجال القانون) وعائلتهما جميعاً ، من الدين اليهودى الى البروتستانتية ونال الدكتوراه فى الفلسفة من

جامعة برلين سنة ١٨٤١ ، وعين محررا ثم رئيسا لتحرير « صحيفة نهر الرين » Rheinische Zeitung التى صدرت فى أول يناير سنة ١٨٤٢ لتنطق بلسان المعارضة الديموقراطية المتطرفة ، وصادرتها الحكومة فى أول يناير سنة ١٨٤٣ فسافر ماركس الى باريس وتزوج من رفيقة صباه « بنى فون فستفالن » وتفرغ لدراسة الاقتصاد السياسي وبخاصة ، الاشتراكين الفرنسيين ، وهذا هو أصل اعتناقه للفكرة الاشتراكية

وفى سنة ١٨٤٤ سافر فريدريش انجلز الى باريس حيث تعرف بماركس وظلا يعملان معاً حتى الوفاة . ثم صدر الامر بنفى ماركس من فرنسا ــ بناء على طلب الحكومة البروسية ــ لانه كان يحرر فى جريدة اسبوعية اسمها « الى الامام » Vorwarts و كانت تهاجم حكومة بروسيا . فرحل الى بروكسل وتبعه انجلز حيث أصدرا فى يناير سنة ١٨٤٨ « البيان الشيوعى » المعروف ثم نفى من بلجيكا عند انفجار ثورة فبراير سنة ١٨٤٨ فى فرنسا فعاد الى باريس بناء على دعوة الحكومة المؤقتة للجمهورية ثم رحل فى ابريل الى كولونيا حيث أصدر فى أول يونيو سنة ١٨٤٨ « صحيفة نهر الرين » الجديدة التى ظلت تصدر حتى ١٩ مايو سنة ١٨٤٩ . ثم نفى ماركس من بروسيا ثانية فعاد الى باريس ولكنه اضطر عقب مظاهرة ١٣ يونيو سنة ١٨٤٩ الى مبارحة فرنسا فرحل الى لندرة حيث بقى حتى توفى بها فى ٩ يناير سنة ١٨٨٣

وفى لندرة أتم أهم أعماله العلمية وكذا دعوته الى الدولية ، فاصدر سنة ١٨٥٩ الجزء الاول من كتابه « حول نقد الاقتصاد السياسى » ولكنه بدلا من متابعة اخراج باقى اجزاء هذا الكتاب ، أصدر فى سنة ١٨٦٧ الجزء الاول من كتابه الجامع « رأس المال » Das Kopital .

نظريات الفلسفة الاجتماعية

(١) يجب أن تسير حركة العمال وفقاً لمبادىء « الفلسفة المادية للتاريخ » ، أى أنه يجب ان لا يراد بها خدمة المثل العليا فان التفسير المادى للتاريخ ، القائل بان السبب فى حدوث جميع الحوادث التاريخية الكبرى كظهور المذاهب الدينية ونشوب الحروب والثورات وغيرها ، لا يرجع الى نشر أفكار جديدة بل الى تغير الظروف المادية والاقتصادية ــ إن هذا التفسير المادى ، لم يقصد به مجرد تعليل الحوادث الماضية بل يقصد به أن تراعى وجهة النظر هذه فيما نعده للمستقبل من حوادث ، فلا نطلب اصلاح نظام الجمعية البشرية بناء على المبادىء المثالية التى يبشر بها بعض رجال

المثل العليا ، بل تدع قوى الانتاج هى التى تأتى من نفسها بالنظام الجديد للمجتمع

وبينما نجد أن الزعيم الالمانى فرديناند لاسال قد بنى اشتراكيته الحكومية (أى التى تعتمد على الحكومة فى اصلاح الشئون على أساس المبادىء الاشتراكية) على أساس فلسفة هيجل المثالية التى تؤله « الفكرة » وتراها قادرة على عمل كل شىء. اذ بنا نجد أن ماركس لم يحتفظ من دراسته فى صغره لفلسفة هيجل الا بأسلوب هيجل المنطقى ولكنه أنكر فلسفته من أساسها وعارض فلسفة فويرباخ القائل باستبدال الاديان الحالية « بدين الانسانية » وكذا فلسفة « كانت » وغيره من فلاسفة الالمان الذين يدعون الى المثل العليا

وقد أعلن ماركس نظرية التفسير المادى للتاريخ فى كتابه « نقد الاقتصاد السياسى » الذى ظهر فى سنة ١٨٥٩ (وهى السنة التى ظهر فيها كتاب داروين عن أصل الانواع)

ولسنا نعنى أن ماركس لم يكن يرغب فى وجود المثل العليا فى العالم . فان كتابه على وضع النظريات الاشتراكية واذاعتها ، يدل على إيمانه بالمثل العليا . ولكنه كان يريد أن يجعلها تابعة للظروف الاقتصادية ، وليست نتيجة لها . وفى ذلك يقول البيان الشيوعى « إن قواعد الشيوعيين النظرية لاتستند البتة إلى الافكار والمبادىء التى وضعها أو اكتشفها هذا أو ذاك من مصلحى العالم . وإنما هى تعابير تتعلق بوقائع حقيقية، خاصة بحوادث تاريخية من نضال الطبقات تجرى أمام أعيننا

(٢) وينتج مما تقدم أن حركة العمال يجب أن تأخذ شكل نضال الطبقات ، فان الانقلاب الاجتماعى يعلل حسب نظرية التفسير المادى للتاريخ بأن تغيير ظروف الانتاج يؤدى إلى نشوء طبقات جديدة وخصومات جديدة بين الطبقات ، تنتصر فيها الطبقة الاكثر ملاءمة لشروط الانتاج الجديدة وهى فى هـــذه المرة طبقة (البروليتاريا) اى العمال

« ونضال الطبقات » عند ماركس ليس معناه الكفاح لتحسين الأجور وغيرها من الشئون الاقتصادية ، وإنما هو إعادة بناء المجتمع على نمط جديد ، أو كما يقول البيان الشيوعى « كل نضال للطبقات هو نضال سياسى »

(٣) وبناء على ذلك يجب أن تكون حركة العمال انقلابية ، ولسنا نعنى بذلك أن تستعمل العنف وإنما نقصد أنه لايجب أن يكون غرضها مجرد الاصلاح الاجتماعى، وأنه يجب عليها أن لا تعتمد فى وصولها إلى غرضها على ماتقدمه الحكومة من

التشريع الاجتماعي ، بل عليها أن تعتبر نفسها عدوة للحكومة المتسلطة ولجميع الطبقات الأخرى

وكان ماركس لا يمانع فى استعمال الثورات العنيفة عندما تكون الظروف مناسبة لها ، ولكنه كان يراها خطرة على الحركة عندما تكون طبقة العمال آخذة فى تنمية نفوذها السياسى

(٤) وعلى ذلك فهو يرى أن النقابات التعاونية ليست كافية لتحرير طبقة العمال بل انها على عظيم فائدتها يخشى أن تغطى أغراضها الاقتصادية المحضة على الغرض النهائى السياسى ، وليس المطلوب هو العمل التعاونى فى وسط النظام الرأسمالى ، بل هو الغاء النظام الرأسمالى كلية

(٥) وفى النهاية يجب أن تكون حركة العمال دولية

نظرياته الاقتصادية السياسية

ولكى نستطيع أن نقدر أهمية ماركس بالنسبة لدولية حركة العمال ، يلزمنا أن نعرف بعض نظرياته فى الاقتصاد السياسى

نظرية القيمة والقيمة الاكثر

كانت هذه النظرية محور أبحاث كثيرة من الاشتراكيين مثل أوين وبرودون وروديرتوس ولاسال ، بينما هى ثانوية الأهمية عند ماركس ، وكان البعض يفهمها على النحو الآتى :

توازى قيمة البضائع ما استلزمه صنعها من العمل ، ولكن أجور العمال لا تكفى إلا لعدم موتهم جوعاً بينما أن باقى ثمن البيع يذهب الى جيوب أصحاب رؤوس الأموال على هيئة أرباح وريع وفوائد (فايظ) واذن فان مجتمعنا قائم على أساس ظالم يجب تغييره .

أما ماركس فلم يتكلم عن العدل والظلم ، بل كان يرفع الستار عن التكوين الداخلى للمجتمع الرأسمالى بما فيه من انتاج وتوزيع ودورة مالية ، بدون أن يؤسس على ذلك نتيجة مهمة ، بحيث لو ثبت خطأ هذه النظرية لما أضعف ذلك من قوة الاشتراكية الماركسية .

فاذا فرضنا أن ٢٠ ذراعاً من الأقمشة التيلية تساوى معطفاً تساوى ١٠ أرطال من الشاى تساوى ٤٠ رطلا من القهوة تساوى أردباً من القمح تساوى نصف طن

من الحديد تساوى بضاعة كذا . وان كلا من هذه الأشياء تساوى أوقيتين من الذهب ، فلم يتبادل الناس كل هذه الأشياء على أنها ذات قيمة واحدة ؟ لابد أن يكون فيها شيئاً مشتركاً فى الجميع وهو الذى نسميه « قيمة » . ان هذا الشىء بالطبع ليس مقدار فائدتها وضرورتها للانسان بل مقدار ما فيها من العمل الانسانى (أى بغض النظر عما إذا كان هذا العمل ، نجارة أو حدادة أو نسجاً) ، وإذن فان للبضاعة قيمة لانه قد بذل فيها عمل انسانى . وسواء كانت البضاعة مركبة أو بسيطة فانها تقاس بوحدة العمل البسيط . وعلى أساس نظرية القيمة هذه بنى ماركس نظريته فى القيمة الأكثر .

فاذا حدث فى هذا النظام الرأسمالى للانتاج أن انفصل صاحب العمل بما عنده من وسائل الانتاج (أى المصنع) عن متولى العمل الذى لا يملك من ثروة سوى القوة العاملة ، فان هذه القوة العاملة تصبح هى نفسها بضاعة تباع وتشرى فى سوق العمل كأنها بضاعة أخرى ، ووحدة البيع هنا هى وقت العمل . والمنتجات هنا هى الأغذية الضرورية لعائلة العامل للاحتفاظ بقوة العمل وتجديدها . فمقدار الأغذية الضرورية للعائلة يساوى إذن قيمة القوة العاملة للعامل فى اليوم

فاذا افترضنا ان رأسماليا قد اشترى القوة العاملة للعامل فى يوم وان الأغذية اللازمة للعامل وعائلته تساوى (أى يمكن انتاجها فى) ٦ ساعات وانها تساوى بناء على ذلك ٣ ماركات فهنا يمكن للرأسمالى أن يشترى ٦ ساعات عمل بـ ٣ ماركات ، ولكنه يدع العامل يعمل ١٢ ساعة فاذن ٦ ساعات من الأثنى عشر تساوى قيمة العمل بينما أن الـ ٦ ساعات الاخرى تساوى القيمة الاكثر ، أى إن الرأسمالى يضع فى جيبه عمل ٦ ساعات بدون أن يدفع عنها أجراً للعامل ، الذى لا يأخذ إلا جزءاً مما يستحقه من الأجر

على أن ماركس لم يبن على هذه النظرية أية نتيجة

ب — النظريات المنذرة بتحطم المجتمع الرأسمالى

نظرية التركز

يرى ماركس أن التقدم الصناعى من شأنه تلاشى المصانع والمحال الصغيرة والمتوسطة أمام المحال الكبيرة التى لديها أسباب الفوز فى مضمار المنافسة يقول البيان الشيوعى ، ان الطبقة الوسطى الضئيلة العدد التى ظلت موجودة الى الآن ، من صغار أصحاب المصانع والتجار وذوى الايراد والعمال اليدويين والفلاحين ، كل هذه الطبقات

صائرة الى (البروليتاريا) طبقة العمال الاجيرين ، من جهة لأن رؤوس أموالها الصغيرة لا تكفى لانشاء المحال الكبيرة التى ينافسون بها كبار الرأسماليين، ومن جهة أخرى لأن طرق الانتاج الجديدة تجعل مهارتهم الصناعية غير محتاج اليها » .

وقد استخلص ماركس من ذلك انه يجب على حركة العمال ان لا تتخذ اجراءات يقصد بها صالح الطبقة الوسطى أو المصانع والمحال المتوسطة إذ ان هذه المحال قد كتب عليها الفشل ، ويجب العمل إذن لصالح طبقة العمال وحدها

(٢) نظرية التكدس

يؤدى تجمع المحال الى محال كبيرة جبارة الى تجمع الملك فى ايد قليلة والى زيادة عديمى الأملاك . ويؤدى تكدس المال فى ايد قليلة الى زيادة إيغار صدر الطبقة العاملة قال ماركس فى الجزء الاول من كتابه « رأس المال » « وباطراد تقليل عدد اصحاب رؤوس الاموال يزداد الشقاء والضغط والعبودية والانحطاط ، ولكن يزداد أيضا تذمر وتمرد طبقة العمال المطردة التضخم والاتحاد والتنظيم والتعلم . . . ويصل تركيز وسائل الانتاج واجتماع العمل الى نقطة لا يمكن فيها احتمالها داخل قشرتها الرأسمالية فتنفجر . ان ساعة الملك الرأسمالى الخاص ، تدق ، وسيصير المصادرون (بفتح الدال) مصادرين (بكسر الدال)

(٣) نظرية ازدياد البؤس

جاء فى البيان الشيوعى « ان متوسط الاجور التى يحصل عليها العمال هى الحد الادنى للاجور أى على قدر المقدار من المواد الغذائية وغيرها ، اللازم لحفظ حياة العامل » ولكنه عدل عن هذه النظرية فى كتاب « رأس المال » الذى جاء فيه ان الاجور قد ترتفع عن الحد الادنى لما يحتاجه العامل ، اذا وجد الرأسماليون انهم مضطرون لدفعها كى يتمكنوا من زيادة عدد العمال أو مقدار أعمالهم . ولكن هذا الازدياد فى الاجر لا يغير الصفات الخاصة لنظام الانتاج الرأسمالى

استبدل ماركس قانون الاجور بقانونه « جيش الصناعة الاحتياطى » القائل « وبوجه الاجمال فان الضابط الوحيد لحركة أجور العمال هو امتداد وانقباض جيش الصناعة الاحتياطى ... » . وازدياد البؤس لا يتوقف على مقدار الاجر فحسب بل ينتج قبل كل شيء من عدم ضمان العامل لدوام كسبه وحياته

وفى هذا المعنى يقول انجلز فى نقده لمشروع برنامج الاشتراكيين الديموقراطيين

« وسيزداد باطراد عدد الطبقة العاملة ومقدار بؤسها-هذا غير مصيب ،فأن تشكيلات العمال واطراد نمو مقاومتهم قد تقيم - الى حد ما - سداً فى وجه ازدياد البؤس والشقاء ، أما الذى لاشك فى نموه فهو عدم ضمان الحياة »

(٤) نظرية الازمات

يؤدى الملك الخاص والمناقشة الحرة الى زيادة الازمات الاقتصادية التى تنشأ من الانتاج الزائد عن الحد أى الانتاج بلا خطة مرسومة مما يؤدى الى تكدس بضائع لايوجد لها مشترون

ان ظروف المجتمع الحالى قد أصبحت أضيق من ان تتسع لما ينتجه من الثروة ، وهذه قوى الانتاج عنده لاتعمل دائما لصالحه . يقول البيان الشيوعى « وكيف تتجنب البرجوازى (طبقة الاغنياء) الأزمة ؟ من جهة باضطرارهم الى تحطيم بعض ما لديهم من القوى » المنتجة ؛ ومن الجهة الاخرى بافتتاحهم اسواقا جديدة وانتفاعهم الى أقصى حد بالاسواق القديمة ... »

وقد تؤدى المنافسة فى تلك الى نشوب الحرب

لخصها عن الالمانية عصام الدين حفنى ناصف

اسماعيل باشا

„ When a great and ancient family has fallen into decay its scions find it more difficult to rise than a new-comer. Because they were badly governed half a century ago and brought down to impotence, the Egyptians are looked at askance by every one. Just like Greece, Egypt, in the course of her centuries of subjection to the Turks, had lost freedom, honor and money, and had stood still. After Mehemed Ali startled the world nearly a hundred years ago by his War against the Turks, he was the first to develop Egypt's resources by making dams and canals. Half a century later one of his successors, Ismail, built the Suez canal and at its opening brought together the German Empror and other European monarchs [1]. It was only the bad government of this ruler that gave the English the opportunity of telsing up their position in Egypt. „

From an articale by Emil Luding in the New York Times Magazine of April 20 th, 1930

لسنا نعرف تشويها لتاريخ مصر الحديث أنكى من القول بأن إسماعيل باشا كان يتبع خطة نظامية لإصلاح البلاد وبث روح التجديد فى أبنائها . والواقع أنه كان يعمل ما تمليه عليه شهواته وقبل كل شىء . وإذا كان شىء من الإصلاح قد تم فى عهده فليس هو الذى دعى إليه ، وليس من قواعد التاريخ الحديث أن نقول ما كنا نقرأه فى كتب التاريخ القديم « الملك فلان وفى عهده حصل كيت وكيت » . كلا ، بل يجب أن نقول أن فلانا من أفراد الشعب أو من الزعماء السياسيين أو من الوزراء هو الذى اقترح كيت وكيت وإن هناك كذا وكذا من التطورات الفكرية والاقتصادية هى التى ساعدت على نجاح هذا الأمر

فقد أنشأ الباشا المحاكم المختلطة بقصد إضعاف نفوذها ثم السفارات التى كانت تحد من نفوذه وهى التى يرجع إليها جانب من الفضل فى عزله . ومع ذلك فإن هذه المحاكم لم تحقق الفائدة التى كانت ترجى منها له أو للبلاد .

وحدثت فى أيامه نهضة علمية يرجع جانب كبير من الفضل فى حدوثها الى أمثال شريف باشا وعلى مبارك باشا، ومع ذلك فان هـذه النهضة لم تجد من المعونة المالية ما يجعلها فى مستوى نهضات البلدان الاخرى — فى نفس عدد السنين — وذلك رغم الملايين التى كانت تستدينها الحكومة و يبعثرها اسماعيل باشا فيما لا يفيد البلاد

وأرغمته الدول الاجنبية على اعطاء بعض السلطة لمجلس النظار كما أوجد « مجلس شورى النواب » ليمثل دورا وهميا يستطيع اسماعيل باشا أن يبرر به تصرفاته امام الدول وأن يستدين منها ملايين جديدة ينفق معظمها فى شئونه الخاصة . ومن المضحك بالطبع أن يستدل البعض من ذلك على أن الخديوى كان يحب النظام النيابى الى حد أنه يقتطع من سلطته الخاصة ليخلق حياة برلمانية لم يوجد ما يرغمه على ايجادها .

أما تصرفاته المالية فمن أسوأ ما عرفناه . فقد اقترض سنة ١٨٧٣ دينا قدره ٣٢ مليونا قبضت منه الحكومة ١١ مليونا نقدا والباقى منه ١٢ مليونا سمسرة و ٩ ملايين أعطى بها سندات من سندات الخزانة المصرية التى لم تكن الحكومة فى حاجة اليها . واستدان من أصحاب الأملاك المصريين مقدارا يعادل ضريبة ٦ سنوات واعطاهم فى مقابل ذلك الحق فى عدم دفع نصف ما يطلب منهم من الضرائب الى الأبد.

وأصلح ميناء الاسكندرية بمليونين ونصف من الجنيهات فى حين ان الذين قدروا ما فيها من الاصلاح وجدوه لا يستحق أكثر من مليون ونصف فقط

وأنفق ٠٠٠ر٤٠٠ر١ جنيه على حفلة قناة السويس ، وانشاء طريق الهرم عندما بلغه أن « يوجينى » امبراطورة فرانسا قد ترغب فى زيارة الهرم . وانشأ الأوبرا لمسرة ضيوفه الأجانب

وعزل فى يونيو سنة ١٨٧٩ فرحل الى ايطاليا

عندما مات الوالى سعيد باشا سنة ١٨٦٣ كانت مصر مدينة بمبلغ ١٠ ملايين . وعندما تدخلت الدول فى شئوننا المالية سنة ١٨٧٥ كان الدين قد أصبح ٩٠ مليونا من الجنيهات .

جاء فى كتاب تاريخ مصر للاستاذين عمر الاسكندرى وسليم حسن «فلو راعينا أن مجموع دخل الحكومة المصرية زاد على نفقاتها فى مجموع المدة التى حكمها اسماعيل باشا بمبلغ ٤٠ مليونا وأن نصيب مصر من أسهم القناة بيع بمبلغ أربعة ملايين كان مجموع ما صرفه اسماعيل باشا وسعيد باشا فى غير شئون الادارة العادية يساوى ١٣٤ مليونا . من ذلك ١٦ مليونا أنفقت على قناة السويس و ٤٠ مليونا على السكك الحديدية

وإصلاح الاراضى وغير ذلك من الاشغال العامة. ونحو ٢٥ مليوناً فى تسوية الديون واستبدالها ودفع أرباحها وأقساطها . فيكون الباقى حينئذ نحو ٢٥ مليوناً من الجنيهات لا تعرف الأوجه التى صرفت فيها .

ولسنا نريد أن نطيل فى ذكر تصرفاته الشخصية وذكر المزارع الواسعة التى كان يقطعها للاجانب والمصريين رجالا ونساء . ولسنا نريد أن نشرح بعض أنواع المظالم التى كانت تقع على الفلاحين فى أيامه والتى لا يزال يتذكرها الفلاحون المتقدمون فى العمر (١) ولا يزال الانجليز يفتخرون الى الآن بأنهم هم الذين أنقذوا الفلاح من هذا الظلم وسنبين كذب زعمهم هذا فى مرة أخرى . ولا نريد أن نذكر بيان إختلال الادارة فى عهده وانه أرغم على أكثر الاصلاحات التى تمت فى عهده والتى كان يجهل مقدار فائدتها

ولقد كتب الاديب محمد ابراهيم هلال فصولا فى هذا الباب من أعداد جريدته (البرلمان) التى كان يصدرها منذ أعوام قليلة وكان المفروض انه سيتابع الكتابة فى هذا الباب ولكنه أقفله فجأة لأسباب لا نعلمها .

وذكر فقيد مصر محمد بك فريد رئيس الحزب الوطنى فى مذكراته الموجودة عند اسماعيل بك لبيب (والتى رفضت أكثر الصحف المصرية نشرها) شيئاً من تصرفات اسماعيل باشا وقال ان الانحطاط الادبى كان الوسيلة الوحيدة للترقى فى حكومته

وقد قام اسماعيل باشا باصلاحات أخرى ، بعضها له فيه فائدة خاصة كتمكنه (بارشاد الوزراء العثمانيين) من الحصول على لقب خديوى ، وحصر وراثة العرش فى أكبر أولاده وزيادة سلطته وسلطة الحكومة المصرية بالتبعية

وله اصلاحات أخرى أفادت البلاد ولا نريد أن نغمطه حقه فيها ، ولكن هذا لا يستدعى بأى حال من الاحوال أن نعتدى على التاريخ هذا الاعتداء الفظيع وان نكيل المدح لاسماعيل باشا جزافا

---

(١) لما بلغ الضيق المالى باسماعيل باشا أشده وقفلت فى وجهه البيوتات والمصارف الاجنبيه ، انهال على الفلاحين بالضرائب ، وقد تفنن هو ومستشاروه فى ذلك الى حد ان اخترع أحدهم ضريبه تصرف على الملابس ومنها البغاق ، جمع دفيه وهى وشاح من الصوف يلبسه الفلاحون ولعل الاسم مأخوذ من الدفء والبشوت ، جمع بشت بكسر الباء وهو أخذ من البغية ، فكانت تختم بخاتم خاص للدولة . ومن وجد متدثراً بشئ منها غير مختوم جلد علنا وحصلت منه الضريبة ، وكثيرا ما كان يحدث هذا فى الاسواق العامه

ان التاريخ ليس ملكا لنا وليس تشويهه من حقوقنا ، فليقتصد المادحون في مديحهم

و هذا ما نقوله أيضا فيما يختص بمحمد على باشا الكبير الذى أجرى فى مصر نوعا عجيبا من الانظمة الشيوعية ولكن بشكل سيء جدا . ونحن ننقل هنا من كتاب تاريخ مصر لعمر الاسكندرى وسليم حسن ، قولهما : « ولم يكتف بضرب الضرائب الفادحة بل عزم على نزع ملكية جميع الاراضى ، ليستغلها على نفقته الخاصة . . .

واستولى بعد ذلك على معظم الاراضى الموقوفة التى كانت تحت رعاية العلماء فجعل الوقف تحت رقابته من غير أن يحله ، فاحتج عليه العلماء وتجمهروا وعارضوه معارضة شديدة . فأقنعهم بالدليل القاطع انه الوالى من قبل الخليفة الذى يتولى امور المسلمين جميعا ، فهو أحق فرد فى مصر برعاية الوقف . ومن هذا الوقت بقى الوقف تحت إشراف الاسرة المحمدية العلوية .

ونزع بعد ذلك ملكية الاراضى التى كانت لبقية الافراد ، مدعيا حق التسلط على كل الاراضى لأنه الحاكم النائب عن الخليفة المالك للارض بحكم الفتح الاسلامى القديم، فاستحضر كل الملاك وطلب منهم ابراز حقوق ملكيتهم ، فقدموا اليه حججهم رغم أنوفهم ، فكان يضرب ببعضها عرض الحائط ، ويظهر بطلان بعضها ، ويمنى بعض الملاك أحياناً بعوض يعطاه من الخزانة . ولما أصبحت جميع الأملاك فى قبضة يده جمع كل ما لديه من الحجج وأعدمها . وبتعاقب الأيام أصبح من المستحيل معرفة ما كان للمماليك أو للوقف أو لأفراد الأمة من الارض ، إذ لم تقو الحاكم على معارضة محمد على ، وكانت الأهالى تحت رحمته . . » اهـ

هذا ما ننقله عن الكتاب الذى قررت وزارة المعارف تدريسه بمدارسها ، وفى كتاب الجبرتى ما هو أشد من ذلك وأنكى . ومما ذكر يتضح أن النظام الذى انتحبه محمد على ليكون نظام البلاد الأساسى هو الشيوعية ، لولا فرق واحد ، هو أن الحكومات الشيوعية لا تصادر أملاك الأهالى ليتصرف بها الحاكم كأنها ملكه الخاص

على انه مما لا ينكر أن محمد على أجرى اصلاحات كثيرة وان يكن أهم هذه الاصلاحات قد عاد عليه شخصيا بفائدة كبيرة كحفر ترعة المحمودية ليرسل بها محصول القمح (الذى يعتبره ملكه الخاص) الى الاسكندرية وتعميق ميناء الأسكندرية بحيث تصلح لرسو السفن الكبيرة التى هى بدورها تشحن قمحه الخاص الى الخارج .

ولسنا نريد أن نغمط المصلحين شيئا من حقهم فى الثناء ، ولكننا كذلك لا نرضى عن المبالغة التى تؤدى الى تشويه التاريخ

مؤرخ

نظرية التطور

(١)

اذا نظرنا الى المقعد الخشبي أو الى المنضدة وجدنا ان كلا منهما لم يخلق على الشكل الموجود به ، بل كان قبل ذلك ألواحاً من الخشب ، وهذه الألواح الخشبية وجدت أولا على شكل كتل ذات طول معين ، وكل كتلةأو بضع كتل، كانت قبل ذلك شجرة . وعلى ذلك فان رؤية المنضدة تذكرنا بمختلف الادوار التى وصلت اليها فى تطورها من الشجرة ، وكذلك فنحن اذا رأينا حيوانا راقيا كالانسان أو القرد أو الحصان أو الحمار فيجب علينا أن نعرف ان هذه الصورة النهائية قد مرت قبل ذلك على عدة أدوار أولية كالتى مرت عليها المنضدة

وهناك عدة براهين تثبت ذلك ، مثل الاعضاء الأثرية ومنها الزائدة الدودية فى الانسان فانها عضو أصبح الآن لا يؤدى عملا بينما هو لا يزال يقوم بوظيفته فى الحمار فيهضم المواد السلولوزية كالتبن. ولما كان الانسان لا يأكل هذه الموادفقد أخذت الزائدة الدودية تتضاءل وأصبحت لاتؤدى أيةوظيفة ، وسيجيء اليوم الذى تصبح فيه أثراً بعد عين

(٢)

وقد استغرقت الحيوانات الراقية مئات الملايين من السنين فى تطورها الى شكلها الحالى ، وإذن فليس من المعقول أن نطالب بتكرار هذه العملية أمام أعيننا ، ولكننا نستطيع أن نشاهد العمليات التى يقوم بها مربو الحيوانات والنباتات فينتجون بها ضروباًجديدة لم تكن موجودة من قبل مثل القطن السكلاريدى والراجوراه اللذين لم يخلقا الا منذ سنوات قليلة ، ومثل الخيل الانكليزية والكلاب البول دوج وغيرهما مما لم يوجد على ظهر الارض الا منذ مئات قليلة من السنين، بفضل جمعيات تربية الخيل والكلاب وغيرها

ومن السهل علينا أن نتصور استمرار عملية التطور وظهور الصور الجديدة ، اذا علمنا ان أحد العلماء قد وصف أربعة آلاف نوع من أنواع النمل المختلفة . وانه يوجد مثل هـذا العدد من أنواع القمح وبضع مئات من أنواع البطاطس المتولد فى أوروبا من نوع واحد جلب من أميركا منذ خمسة قرون .

(٣)

ولا يصح الاعتراض على ما تقدم بأن تطور الكلب القديم الى عدة أجناس كالبولدوج والسلاقى والارمنى والفوكستيريور لم يمنع انها كلها من نوع الكلاب (أولا) لأن تقسيم الحيوانات الى مراتب وأنواع وأجناس وفصائل. الخ .هو من عمل الانسان ، أما الطبيعة فلا تعترف بهذه التقسيمات ولا تعرف الا الافراد (ثانياً) لأن القرابة بين الانواع المختلفة أمر ثابت من تناسل الانواع المختلفة كتناسل الحمار والفرس أو الحصان والاتان وتناسل الكلب والاناث من الثعالب. وهنالك أدلة علمية أخرى كالقرابة بين دم الكلب والذئب ودم الحمار والحصان ودم القرد والانسان . وليس هنا مجال لشرح التجارب العلمية ولكنا نقول ان هذه المسائل قد ثبتت ثبوتاً قاطعاً بحيث لا يوجد عالم واحد يجادل فى صحتها ، ويمكن لكل انسان أن يشاهد تجربتها بنفسه

(٤)

وقد حاول بعض المتعنتين أن يستثنى الانسان من أحكام نظرية التطور فلم يستطع،إذ أن الانسان لا يمتاز بأية ميزة خاصة الا ميزة المشى على قدميه ، وفيما عدا ذلك من مزايا الانسان فكل منها موجود فى بضعة أنواع من الحيوانات وان لم تكن كلها موجودة معاً الا فى الانسان .

فالأعين المتجهة الى الامام موجودة فى جميع القرودالانسانية ، ولبعض القرود الاميركية الصغيرة مخ كبير لا يقل حجمه نسبياً عن مثيله فى الانسان ، وللقرد الانفى أنف يفوق فى بروزه أكبر الانوف الانسانية ، وللقردة الانسانية فى صغرها شعر متجمع فى رأسها على النحو الموجود به عند الانسان . وشعر الجسم غزير عند بعض الأفراد من الناس بشكل لا تبلغه القردة . هذا وللانسان امتداد فى العمود الفقرى يشبه ذنب الحيوانات ولكن بعض الأنسجة (كالأعصاب والأنسجة الرابطة والعضلات وأحياناً العظام) تعوقه عن أن يتدلى كذيل الحيوان ، ومع ذلك فان القردة الانسانية ليس لها ذنب وكذا الدب الاسترالى والضفدع وغير ذلك .

(٥)

كلنا نعرف أن الكرة الارضية كانت فى أول الامر كرة نارية لا يمكن أن يعيش

فوقها حيوان أو نبات،ثم بردت القشرة الارضية فتحول البخار المحيط بها الى ماء، ثم تجمع الماء فى بحار (تخالف البحار الحالية من بعض الوجوه)

وقد نشأت الكائنات الحية فى البحر لا فى البر وهذا ما نتبينه بوضوح عند بحث أجسام جميع الحيوانات الوحيدة الخلية والحيوانات الجوفاء والحيوانات الرخوة وغيرها. أما كون الحيوانات الفقارية لاتشذ عن ذلك فهذا ما ترينا اياه الاسماك

وتشاهد الاقواس الخيشومية فى الجنين الانسانى مما يدل بجلاء على مقامنا السابق فى البحر ، ولا تزال جهازات الخياشيم تكون أهم أجزاء الرأس والرقبة فينا مثل بوق استاكيوس وعظم المطرقة والسندان والركابى فى الأذن ، العظم اللامى (عظمة اللسان) والفكين الأعلى والأسفل .

(٦)

ويلاحظ ان جلد السمك المسمى كلب البحر له حراشيف عظمية تشبه أسناننا فى شكلها وفى المواد المتكونة منها ، وذلك لان الاسنان لم تكن إلا حراشيف عادية ولكنها بقيت ونمت فى الفكين بينما انها انقرضت من باقى أجزاء الجسم

وبناء على ذلك فقد كانت أسنان الحيوانات المختلفة متشابهة كلها فى الأزمان الغابرة ولكنها أخذت تتزايد فى الاختلاف كلما دعت الاسباب الطبيعية الى ذلك ، فقد كانت الحيوانات القوية تهاجم الضعيفة وتأكلها فنمت أنيابها وأصبحت أسنانها حادة تحسن تمزيق اللحم وتكونت فى أقدامها المخالب . أما الحيوانات الضعيفة فقد كانت تفر هاربة فتكونت عندها الحوافر وما يماثلها ، وكانت قانعة بأكل الأعشاب فتضاءلت أنيابها وكبرت أسنانها الخلفية فتطورت الى آلة مضغ كيما تطحن قيات الغذاء التى تكون فى بعض الأحيان كبيرة جداً .

وقد أصبحت الأسنان والايدى فى الوقت الحاضر ذات اشكال خاصة لايمكن تغييرها ، فالأسد مثلا لا يمكنه الانحراف الى أكل النبات ، ولا الثور يمكن تعليمه كيف يكمن للفريسة

وكذلك القردة الانسانية مثلا فانها لا يمكن أن تتحول الى الشكل الانسانى. وذلك لأسباب منها أن أيديها قد انضمر الابهام فيها كثيرا حتى لايعا كسها فى القفز من شجرة الى أخرى كما أن ابهامها القصير مركب بشكل لا يستطيع معه الانحناء نحو اليد ليمسك بالآلات أو ليصنع آلات حجرية كالتى استعان بها الانسان فى العصر الحجرى .

(٧)

ويرينا التشريح المقارن بين أطراف الحيوانات المختلفة تشابهاً قوياً يدل على قرابتها البعيدة ، فأذرع الانسان قدتطورت عن زعانف السمك وذلك واضح من تشابه العظام فيهما ومن تشابه الطريقة التى يتحرك بها كل منهما ، وكذلك كان للحصان خمسة أصابع لم يبق إلا أوسطها ، وترى بباطن ساقه بقعة رمادية اللون هى بقية أظفر الاصبع الاول وهو الابهام .

(٨)

ولقدكان الجد الاصلى للانسان والقردة حيوانا متسلقا يمشى على أربع ، وذلك ظاهر من التكورات التى فى يد الانسان والتى هى معدة لوطأ الارض . وتكون يد الطفل المولود حديثا ذات حجم كبير جدا بالنسبة لباقى الجسم واذا علقناه على عصى وجدنا بطن قدميه تتجه كل منهما الى الاخرى كما لو كانتا ممسكتين ساق شجرة

وتشبه القردة الانسانية الانسان عدا ماتقدم ، فى اتجاه العينين الى الامام (بخلاف عينى الحمارمثلا فهما متجهان الى الجانبين) وكبر المخ وتقوس الجمجمة وكبر نتوئها الخلفى وتكون الاسنان من ٢ قواطع و ١ ناب و ٢ أو ٣ مما قبل الاضراس و ٣ أضراس ، وغير ذلك

وعند ما ينشأ الجنين الانسانى فى بطن أمه تكون العينين على الجانبين ثم يأخذان فى الاقتراب من بعضهما ويساعد ذلك على نمو الجمجمة (التى هى صندوق المخ) فيكبر المخ ، ولكن ذلك يقلل من قوة حاسة الشم فهى عندنا ضعيفة جدا اذاقورنت بمثيلتها عند الكلب مثلا ، الا انه من الجهة الاخرى يجعلنا نرى الاشياء مجسمة فنستطيع أن نحكم على حجمها والمسافة بينها وبيننا بعكس الحيوانات ذات الاعين الجانبية فان كل عين من أعينها تلتقط صورة منفصلة على حدة فيخال لها انها امام سطح واحد ، ولاتدرى هل يلوح الجسم الذى أمامها كبيرا لانه كبير حقا أم لانه متناهى القرب فحسب . وهذه الحالة تعلل لنا بسهولة ، السبب فى خوف الخيل ، وفى انزعاج حيوانات كبيرة من كائن صغيرنسبيا كالانسان

وأقرب القردة الانسانية الى الانسان هو الجيبون وهو قرد صغير أنيق يقطن جزائر الهند الاسيوية

وبناء على ما تقدم فالانسان متسلسل لا عن القردة الانسانية بل متسلسل معها من أصل واحد

(٩)

نظرية التطور لا تبحث فى : من الذى خلق الانسان والحيوان ؟ وما هى صفات هذا الخالق ؟ بل هى تصف الطريقة التى حصل بها هـذا الخلق ، وذلك بشكل يقبله العقل ولا يخالف ما نعرفه من العلوم المختلفة

ولكن ذلك لم يمنع من نشوب الحرب بين القائلين بها وبين رجال الدين ولاسيما الكاثوليكيين منهم ، فقد عثر علماء الحفريات على هيا كل آدمية مدفونة فى طبقات جيولوجية قديمة جدا ، وذلك يثبت وجود الانسان منذ مئات الالوف من السنين ، بعكس ما تزعم التوراة فهى تنص على أن أول انسان قد وجد منذ نيف وستة آلاف سنة فقط ، كما أنها قد وصفت طريقة خلقه بشكل يشبه الطريقة التى تصنع بها القلل عندنا اذ يكور الطين على شكل مخصوص ثم يوضع فى النار فيصير قلة باذن الله .

(١٠)

فجميع الكائنات الحية من انسان وحيوان ونبات قد تسلسلت من أصل واحد أو بضعة أصول أصغر جدا وأضأل من أى حيوان نعرفه الآن . وقد تولد هـذا الحيوان تولدا ذاتيا من جسم غير حى والأرجح أن هذه العملية لا تتكرر الآن لان الظروف الحالية غير ملائمة لذلك كالظروف التى وجدت منذ الملايين العديدة من السنين (وهنالك طرق عديدة لتقدير عمر الأرض كحسبان الزمن اللازم لتحول عنصر الراديوم الى رصاص أو اللازم لاحتواء البحار على ما فيها من الأملاح الخ)

والحياة نفسها أما أن تكون حديثة فى الكون واما أن تكون أزلية أى موجودة منذ وجد الكون نفسه . ويرى البعض انها انتقلت الى الارض ، عند تبرد قشرتها — من احدى الكواكب البعيدة

كل هذه الابحاث خارجة عن المدى الذى تبحث فيه نظرية التطور ، ولذلك نقتصر على هذا

عصام الدين حفنى ناصف

نحن فى طور انحطاط

الثورة — الاحزاب السياسية — التعليم — الصحافة — العلم والادب — المثل العليا — النتيجة

١ — الثورة

لا نريد أن نطيل فى القول أو أن نذهب فى هذا البحث مذاهب أهل النظريات فى تقرير نتائج قد تكون فاسدة المقدمات . بل نريد أن نروى الحقائق كما يلمسها كل من يحاول أن يفكر تفكيراً مستقيماً فى هذه البلاد .

ولا أظن ان شعبا كالشعب المصرى يخيل لأكثر أفراده انه يكاد يبلغ سن الرشد، ويمكن أن يشعر شعوراً صحيحاً بأنه حى وبأنه ذا حق فى الحياة ، من غير أن يواجه حقائق الحياة العالمية ويلمسها لمساً ، بل من غير أن يواجه حقائق البيئة وحالات الزمان والمكان ومنازع المتجه العالمى ، الذى يتعذر علينا أن نشعر بأننا فى نهضة صحيحة من غير أن يكون لها فى حسابنا أكبر الوزن وأعظم التقدير .

كانت الثورة المصرية فى سنة ١٩١٩ حركة عنيفة ظاهراً ، ضعيفة باطناً . فهى ثورة لم تقم على أساس من العلم ولا دعامة من نظريات سياسية ولا عقيدة فلسفية ، ولا يقين بأنه من حقنا أن نحيا حياة حرة صحيحة . وأكبر دليل على هذا ان الحماية أعلنت فى سنة ١٩١٤ فلم يحرك مصرى ساكناً ولا ارتفع صوت باحتجاج ، بل كان من زعماء المصريين أنفسهم من فكر فى أن اعلان هذه الحماية على مصر كان الحل الوحيد الذى يمكن أن تخرج به مصر من مأزق الحرب العالمية من غير أن تصاب فى الحرب برشاش من الدماء . ومع هذا فقد تردت مصر فى غمرة الحرب وجردت ٢٠٠ ر ١ ٠٠٠ من أبنائها زجوا فى صفوف الحرب ، فلما عقد السلام عاد هذا الجيش الجرار من مختلف الميادين التى حارب فيها بالفعل ، لا يحمل الا راية الحماية ترف فوق رأسه ورأس مصر .

هذه هى الحقيقة التى لا يمكن أن يشك فيها مفكر استقام فكره، وأراد أن يواجه أمته بصلابة الحق ، لا أن يزين لها الرشد تحت ستار الكلمات الخلابة .

أما قيام الثورة فان سببه يرجع الى شعور بالظلم استقر فى النفوس منذ أخذت بريطانيا تصيبنا فى أموالنا واحتياجاتنا ، ومنذ حددت ثمن محصول مصر الرئيسى

وهو القطن ، وأخذته معنا بارداً بأبخس الاثمان . فحرمتنا من الانتفاع بملايين من الجنيهات كانت تخرج بها مصر من أغنى أمم العالم . ولكن للحماية ثمناً يجب أن يدفع ، فى حين ان للشعور بالظلم نهاية لابد من أن تظهر نتائجها . هذا يحصل ما فى الثورة المصرية سنة ١٩١٩ . والدليل على هذا ان بريطانيا لم تكد تمد الينا يدا بالوئام الكاذب حتى مددنا لها أيدينا غير شاعرين بأن اليد التى تعلن الحماية هى نفس اليد التى مدت لنا بما نعتقد كذباً وزوراً انه استقلال . هذا فى حين ان تسليمنا بهذا المبدأ تسليم فى الحقيقة بما يترتب عليه من النتائج السياسية .

٢ — الاحزاب السياسية

فى مصر ثلاثة أحزاب سياسية ، يدعى أحدها — وهو حزب الاكثرية — انه حزب الاستقلال . ويدعى الثانى — وهو حزب الوسط — انه حزب الاستقلال ويدعي الثالث — وهو حزب الشمال — انه حزب الاستقلال . أما الحزبان الاولان فيدينان بمبدإ المفاوضة . أما الثالث فلا يريد أن يفاوض ولا يريد أن يثور ، فى حين أن الحقيقة أن بين مبدأ « لا مفاوضة » وبين مبدأ « الثورة » فارقا لا يكاد يرى . وهو بطبيعة موقفه هذا أصبح أضعف الاحزاب بغير جدال .

أما حزب الاغلبية فحزبان . حزب أقلية تحكم فيه كل التحكم ، وحزب أكثرية يخضع للأقلية خضوعا غير محدود الا بخيال واحد ، هو الوحدة القومية . فى حين أن الانسان لو فكر فى هذه الوحدة القومية لوجدها خيالا لاحقيقة . والحقيقة ان حزب الاقلية الذى يحكم فى حزب الاكثرية ، عبارة عن أمة مستقلة استقلالا تاماً فى كل مرافقها ومصالحها وعقائدها ، تعيش فى داخل أمة يستعبدها غاصب أجنبي عنهما . هذه هى الحقيقة رضينا أم لم نرض . ولا جرم أن تكويناً سياسياً يبلغ هذا المبلغ من ضعف التأليف ، لا يكون فيه من القوة الحيوية ما يلوح لنا من ظاهره .

فاذا عدنا الى حزب الوسط ، حزب الاحرار الدستوريين ، وقفنا على أقلية تريد الاتفاق مع الانجليز ، وتريد فى الوقت ذاته أن ترضى نزعتها هذه بأن تجذب نحوها من الامة ، عدداً من الافراد ، ان لم يكونوا أغلبية عددية ، فلا أقل من أن يكونوا أغلبية ثقافية . ولكن هذا لا يرضى طرف الاتفاق الآخر وهو الانجليز . إذن فلابد من الالتجاء الى سياسة يمتزج فيها الضعف بالعنف ليفوز الحزب بالبقاء . ولكن

تقصه مع ذلك المبررات . فأى مبرر من السياسة أو القانون يجعل قيام الحكم فى يد الأقلية مستساغا مع قيام الدستور؟ هذه هى العقبة الوحيدة التى تمنع هذا الحزب من أن يكون ذا قوة يشعر بها فى البلاد شعوراً صحيحاً ، بعيداً عن فكرة انه دائما يقوم على سنادتين ، السلطة الشرعية فى الظاهر ، والسلطة الفعلية فى الحقيقة . وأضعف ناحية فى هذا الحزب انه يتعجل الحوادث ، فيضع يده على العجلة ويديرها بسرعة ، فاذا زادت سرعتها كان أول من تفلت من يده وأول من يسقط من فوقها . ولو انه ترك العجلة تدور دوراناً طبيعياً ، لأصبح له فى البلاد شأناً غير شأنه هذا ، ولتعدل الموقف السياسى بطبيعة الحوادث تعديلا أكثر خيراً للبلاد .

هذا فى أحزابنا السياسية ، أما حزب الاستقلال ففى معتقدى انه لم يتكون بعد . ولكن هل يتكون ؟! هذا ما لا يمكن التكهن به . وما دام انه لم يتكون ، فنحن فى عصر انحطاط سياسى بلا مراء .

٣ — التعليم

ان تعليما لايتجه الى مثل أعلى لا يكون تعليما ، بل أحرى به أن يسمى تلقينا . فاذا تساءلت مثلا أى مثل أعلى يتجه اليه التعليم القومى فى مصر ، أو الى أى غرض يرمى القائمون على أمور التربية ، فبأى شىء تجيب ؟ سائل نفسك ماهو الغرض الذى من أجله تنشىء ولدك أو ابنتك ؟ إن عجزك عن الجواب راجع بالضرورة الى أن التعليم فى مصر تقليد لا ابتكار فيه . فنحن نعلم أولادنا لان بقية الامم تعلم أولادها . ولكن لكل أمة من الامم غاية ترمى اليها وغرضاً محدوداً تقصده من وراء التعليم وتجعل التعليم وسيلة اليه . فاذا تساءلت عن الغاية التى نرمى اليها من التعليم والمثل الأعلى الذى تتخذ التعليم وسيلة اليه ، عجزت عن الجواب ، وكان عجزك أبلغ فى الدلالة على أنك فى عصر انحطاط منك إذا لجأت الى الف نظرية تحوكها لتخفي ضعف المتجه التعليمى فى مصر .

٤ — الصحافة

ان أكبر مظهر من مظاهر الانحطاط فى هذا العصر ، ان صحافة البلاد كلها تنقسم الى قسمين . صحافة حزبية ، تؤيد الاحزاب التى تنتمى اليها حقاً وباطلا ، وصحافة زئبقية ، ترجح على حسب قوة الدفع تحت ضغط الحوادث . هذا من حيث الصحافة

السياسة . أما الصحافة الأدبية فقسم منها يحاول الجد فيما ينشر ويحاول النفع العام من طريق بث المذاهب الحرة علمية وفلسفية ، وهذه أقل الصحف انتشاراً فى مصر وفى العالم العربى ، وقسم يستغل شهوة الجماهير وانفعالاتها ، وهى أكثر الصحف انتشاراً . ولا جرم أن هذا المظهر الغريب يدل فى أول مايدل عليه أن التطفل الصحفى بالغ فى مصر أقصى مبالغه ، بل ان هذا التطفل هو طريق النجاح الوحيد فى العمل الصحفى .

أما الصحف المستقلة الحرة التى لاتدين إلا بحرية العقيدة والفكر ، ولاتبغى إلا البحث وراء الحقيقة فى السياسة والأدب والعلم، ففتش عنها بمصباح (ديوجينيس) ان كنت تعثر لها على أثر فى طول البلاد وعرضها . وهذا دليل ثابت على أننا فى عصر انحطاط .

٥ — العلم والأدب

اما العلم ، واما الأدب ، فلا أقل من أن نقول فيهما أن مظاهر الانحطاط فيهما أظهر منها فى كل مظهر آخر من مظاهر الحياة فى مصر . حقيقة ان لدينا بعض العلماء، وحقيقة أن لدينا بعض الادباء ، غير أن هذا كله لا يكفي فى معتقدى لأن ندعى أننا قد كونا فى العلم والأدب بيئة صحيحة .

يعتقد الكثيرون أن رقى العلم والأدب راجع الى كثرة عدد العلماء والأدباء . فى حين أن الحقيقة ليست مسألة كم بل مسألة كيف صرف . ليست مسألة عدد بل مسألة صفة . فقبل أن تسأل عن عدد العلماء والادباء ، اسأل عن صفتهم لتعرف الحقيقة.

والحقيقة أنه ليس لدينا بعد من انقطع للعلم لذاته أو للادب لذاته . ليس منا من يشعر بأن العلم والادب مطلوبان لذاتهما ، لا لما يجرا من المغانم والكسب المادى. وهذه أول خطوة فى سبيل تكوين الجو العلمى ، وقيام الأدب على أساس ثابت .

أين العالم الذى يشعر بجمال العلم ؟ وأين الاديب الذى يشعر بجمال الأدب ؟ أين من انقطع لاحدهما ؟ أين من عرفهما على هذه الحقيقة ؟ بل أين من أغنيائنا من عرف قيمة العلم والادب مقيسة على هذا المعيار ، فكان شاعراً بجمال العلم والادب فوهب من ماله بعض الشيء ، ليقوى فى النفوس نزعة العمل للعلم والادب لذاتهما؟ هذا دليل آخر على أننا فى عصر انحطاط .

٦ — المثل العليا

اذا كان شأننا فى الثورة وفى الاحزاب السياسية وفى الصحافة وفى التعليم وفى العلم وفى الادب على مارأينا ، فاين هى المثل العليا التى تتجه نحوها فيما ندعى من نهضة نهضناها ؟ الحقيقة أنه ليس لدينا مثل علياً ، بل لدينا مثل سفلى ، نجد وراءها متاهين حليتها .لدينامن المثل السفلى مايكفى لان يثبت أننا جزء من النوع البشرى ، ولكن هل لدينا من المثل العليا ما يكفى لان نكون أمة ناهضة بالفعل ؟ سائل نفسك أين المثل ، وأنت تعرف انك فى عصر انحطاط .

وأكبر دليل على هذا أننا فهمنا الحياة على غير حقيقتها . فهمنا فى المدنية أنها التمتع بظواهرها . حتى المرأة فانها لم تفهم من المدنية الغربية الاأنها المخالطة الحرة والمرقص . لم تفهم المرأة عندنا أن للمدنية الغربية مع مراقصها وملاهيها مثلها العليا تلك المثل التى إن فقدتها فقدت صفة أنها حضارة وأنها مدنية .

٧ — التقييم

أننا فى عصر انحطاط ، يتناول كل مرافق الحياة ، وكل معايير المدنية . أماحاجتنا فشديدة الى زعماء يكشفون عن جسم هذه الامة المسكينة كساء الباطل الذى نسجه الوهم وحاكته الزعامة السياسية كسبا لعطف الجماهير وانتفاعا باموالها . نحن فى حاجة لمن يقول أننا فى عصر انحطاط ، وأنناق عصر انحلال تناول كل وجه من وجوه العمل للرقى الحقيقى .

نحن نعمل لشهواتنا . وهذا أبعد شىء عن أن نكون عاملين على تكوين وجه صحيح من أوجه الحضارة .

اسماعيل مظهر

الحرب القادمة بين انجلترا وأمريكا

بقلم الكاتب الاقتصادى الامريكى لودويل دنى

كثر عدد الكاتبين والباحثين فى موضوع النضال لتملك منابع زيت البترول — منذ بضع سنوات . ولكن جبهة القتال تغيرت كثيراً منذ سنة ١٩٢٥ ، وحدثت تطورات ومشاكل هامة حول بترول الروسيا والموصل والمكسيك، وظهرت ميادين حرب جديدة ، و بذلت انجلترا جهوداً عنيفة فى فنزويلا وكولومبيا .وفيما عدا ذلك فان الحكومة الانجليزية تعمل على ابعاد الاميركيين عن البترول فى مناطق نفوذها ، مما دعا الحكومة الامريكية الى اتباع سياسة الحزم والشدة ضد سياسة « استعمار البترول » الانجليزية ، والى الاحتجاج على القوانين التى أصدرتها حكومة المكسيك وصيرت بها اخراج البترول فى بلادها عملا وطنياً أهلياً .

مازال الكفاح لاجل البترول مستمراً منذ سنوات عديدة بين أمريكا وانجلترا وتأخذ انجلترا شكل المهجوم لانها أكثر احتياجا الى البترول . ولكن طرق القتال وأسبابه متماثلة عند الطرفين . وهى تدور فى الخفاء فتتمسك الشركات المختلفة باخفاء أسرارها التجارية والصناعية وعدم اذاعة كل من الحكومتين لما تجربه من مختلف التسليحات البريه والبحرية .

ولكننا نسمع بين آن وآخر صوت السير هنرى دتردنج وصوت الآخرين من من رجال شركة (استندارد أويل) يقصون وقائع رائعة — أملا فى اجتذاب عطف الجمهور .

وعدا ذلك فان أهمية النضال حول البترول لاتنحصر فيه وحده ، بل فى كونه أنموذجا للنضال الهائل بين أمريكا وانجلترا على تملك السيادة الاقتصادية فى العالم . ان التعمق فى بحث هذه المشادات المختلفة يرينا بجلاء ، ان حرب البترول بين الدولتين هى مأساة لامفر منها .

أهم عامل فى قوة الدول هى القوة الاقتصادية ، وقد كانت أمريكا قبل الحرب تدين باقى العالم بمقدار ٥٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال فأصبحت فى عام ١٩٢٧ تدينه بمبلغ ٢٥٫٦٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال منها ١١٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال تدين بها انجلترا كما تدين انجلترا دولا أخرى بمبالغ غير صغيرة نسبياً

وللرعايا الامريكيين فى مصاف البلدان الأجنبية ١٤٫٥٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال

يدفع لهم العالم عنها ربحاً سنوياً قدره ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر١ ريال وقد بلغ مقدار التجارة الاميريكية فى الخارج ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٩ ريال وهذا النمو الاقتصادى يستلزم حماية الحكومة الاميريكية وابتعادها عن سياسة العزلة.قال أحد رؤساء الجمهورية ماك كينلى «ليست العزلة أمراً ممكناً ولا مرغوباً» وقال الرئيس ولسن «نحن نشترك فى حياة العالم سواء أردنا أم لم نرد . والذى يهم الشعوب الاخرى يهم شعبنا ، وما يحدث من الحوادث يصيبنا ويؤثر فينا ، كما يصيب شعوب أوروبا وآسيا» . وكذلك لم تستطع أمريكا إبان الحرب إلا أن تشترك فيها

افتقرت أوروبا فى الحرب وأصبحت فى حاجة الى معونة أمريكا ، وعجزت هذه عن كف يدها عن الخارج ، حتى لم يعد هنالك أى مشروع اقتصادى ضخم فى أى بلد من بلدان العالم ، إلا وللامريكيين علاقة به . وقد أدى نمو المصالح الامريكية على هذا النحو الى شمولها بمساعدة السياسة الدبلوماسية الامريكية و — فى بعض الاحيان — المراكب الحربية الامريكية .

وتختلف سيطرة أمريكا فى الخارج عن إحداها الاخرى فى مقدار أهميتها فقط. ويظهر نفوذها فى غربى أوروبا بشكل غير مباشر فى مثل مشروع داوز أو منح إقراض النقود لفرنسا ، أما فى شرق أوروبا والشرق الادنى ، فان للمستشارين الماليين الامريكيين قوة تكاد تكون ديكتاتورية . وتسود أمريكا على كل شيء فى جمهورية ليبيريا ، ماعدا الاسم ، وتبسط مراقبتها فى الصين — بمشاركة دول أخرى — على الجمارك والمالية ، ولها هناك موظفوها المدنيون والعسكريون . وبحر كرايب (أمريكا الوسطى) هو من الوجهة العملية تابع للولايات المتحدة . وليس فى وسع جمهورية من جمهوريات أمريكا الوسطى أن تقف موقفاً مضاداً لواشنجطون بغير مساعدة خارجية

ويمتد نفوذ امريكا الحقيقى الى كوبا وبناما ، ويسود الاسطول الامريكى هايتى ونيكاراجوا . هذا وهناك ١٤ جمهورية من العشرين جمهورية المكونة لامريكا اللاتينية ـ تخضع فى ماليتها وخارجيتها وحربيتها للولايات المتحدة

يضاف الى ذلك مستعمرات أمريكا التى اشترتها واستولت عليها عنوة ، وهى الفليبين وألاسكا وهواى وجوام ، وبورتوريكو وجزائر العذارى

كل هذه المستعمرات ومناطق النفوذ لم تكف امريكا ، وقد أثار ذلك حسد الحكومات الأوروبية فرفعت الضرائب الجمركية فى وجه البضائع الامريكية . يضاف

الى ذلك ان أمريكا لم تعترف بروسيا وانها تثير سخط اليابان بمنع أبنائها من الهجرة الى الولايات المتحدة وانها مضطرة الى حماية رعاياها فى الصين بقوة الاسطول

وفيما عدا ذلك فانجلترا هى التى تقوم بباقى الاجراءات للوقوف فى وجه ازدياد السيادة الاميركية . وانجلترا تبنى دولتها العالمية على سيادة البحار ، والسيطرة على الاسواق الخارجية ، ومراقبة احتياطى المواد الخام كالبترول ، وهذه هى الاسباب الحقيقية للنضال . ورغم التحدث عن المصالحة عبر المحيط والثرثرة والهذيان بذكر الوحدة الانجلو اميريكانية فان هاتين الدولتين سيكونان فى حالة الحرب على رأس الجبهتين الاقتصاديتين المتحاربتين

وستدخل انجلترا هذا الكفاح ولها مزايا القديم ونقائصه فهى تملك شطراً كبيراً من العالم ولديها الخبرة الاستعمارية ولكن حيويتها قد غاضت الى حد يلفت النظر ، ومن الصعب عليها أن تحتفظ بالنظام داخل امبراطوريتها كأن تشكيلاتها وصناعتها من النوع العتيق . والظاهر أن نفس نظام بناء قوة الدول على امتلاك أقطار ومستعمرات — لم يعد يتلاءم مع المستقبل . عدا ان انجلترا رغماً عن المنافسة القوية التى تواجهها به أمريكا وغيرها فانها مضطرة أن تجعل مستعمراتها المستقلة فى مركز مساو لمركزها وفضلا عن ذلك فان الثورة فى الهند ومصر لا تزال فى ازدياد

أما أمريكا فرغماً عما لديها من الموانع إلا أنها تمتاز بميزة الشباب وبحماية حدودها (سواحلها) شرقا وغربا وبوفرة غناها الطبيعى الذى تزيده الحرب بينما تجر الفاقة على أعدائها ، فهى عدو خطر يثيره اعتقاده بعدالة مهمته فى تمدين العالم فيدخل الحرب بحماس الحروب الصليبية مما يكفل النصر فى أغلب الأحيان

* * *

يرى عدد عديد من رجال الاقتصاد انه لم يعد فى وسع انجلترا أن تحتفظ بمركزها كمركز صناعى للعالم فقد كانت تشترى محصولات المناجم والزراعة من شرق أوروبا وتصنع منه البضائع التى تبيعها هناك . ولكن تلك البلاد قد ترقت صناعياً فلم تعد فى حاجة الى وساطة انجلترا ، ومن سوء حظ انجلترا انه ليس فيها صناعة زراعية تعوض بها ما تفقده فى النواحى الأخرى

وقد أدى تقدم الصناعة فى تلك البلاد التي كانت تستورد من انجلترا ، ليس الى استغنائها عن البضائع الانجليزية (وفى مقدمتها المنسوجات القطنية) فحسب ، بل الى ظهور أسواق جديدة (أمريكا مثلا) تورد ما يلزمها من العدد والآلات ، وهذا

مما يزيد حدة التنافس بين انجلترا وأمريكا. وهو تنافس تتغلب فيه الولايات المتحدة نظراً لمركزها الجغرافى الممتاز وتفوق طرق الصناعة فيها وسهولة عقد القروض مما يجعل الدول الناشئة جديداً تلجأ اليها . وقد اشتركت الولايات المتحدة فى امداد أمريكا الجنوبية وآسيا بلوازم التمدين بنصيب يفوق نصيب انجلترا وذلك بشكل غير مباشر باعارتها رؤوس الاموال اللازمة وبشكل مباشر بالاشتراك فى صناعة تلك الاقاليم

وقد حاولت انجلترا أن تقاوم أمريكا بجعل مصانعها وطرق البيع عندها على الطريقة الامريكانية فأرسلت سنة ١٩٢٦ بعثة ما كنزى الى أمريكا لدراسة أسباب تفوقها الصناعى ، وأعلنت وزارة العمل الانجليزية تلك الاسباب التى جاء منها : « ثروة الولايات المتحدة فى كنوزها الارضية وموادها الخام وعدم وجود حواجز جمركية وغيرها بين ولاياتها المختلفة وكمال وبساطة طرقها فى الصناعة وضخامة منتجاتها الصناعية ورخص مولدات القوى (الفحم والشلالات الخ) وتأثير الجفاف (منع الخمر) الحسن ، على المنتجين والمستهلكين والاشتراك بين أصحاب رؤوس الاموال والعمل الذى يجعل العمال يبذلون كل قواهم لزيادة الانتاج

* * *

فى ٢١ يناير ١٩٢٨ أعلن الاميرال شارلز بلانكت قومندان ترسانة بروكلين تعضيداً لبرنامج كوليدج فى تخصيص ٨٠٠ مليون ريال للاسطول « ان الكفارة التى تكفر بها أية دولة عن تقدمها الصناعى ، هى الحرب لا مندوحة عنها . وعندما يتتبع المرء سير الحوادث بانتباه يرى ان أمريكا أقرب الآن الى الحرب منها فى أى زمن مضى ، إذ أن مركزها الاقتصادى الحالى يضعها فى تنافس مع دول اقتصادية عظيمة أخرى » وليس يخفى انه قصد انجلترا بكلامه ، ورغما عن التكذيبات الرسمية فقد بقيت الحقية أمراً واقعاً

وعلى كل حال فانا نعد أنفسنا بجهاس ونشاط لحرب بيننا وبين انجلترا ، يرى ضباط بحريتنا أنها ستفصل فى مسألة التفوق الاقتصادى ، والشعب الامريكى أقل الآن ميلا لعدم تعضيد التسليح ضد انجلترا ، إذ هو يعتقد بحق أو بغير حق أن انجلترا قد سعت بالحيل والدسيسة فى مؤتمر كوليدج بجنيف ـ لوضع أمريكا على الدلالة فى مركز بحرى ثانوى ، يضاف الى ذلك مسلكها فى مؤتمر واشنجطون ، وما وافقت انجلترا أخيرا على أن تكون نسبة اسطولها لاسطول أمريكا واليابان كنسبة ٥ : ٥ : ٣

الا لعجزها عن ايجاد المال اللازم للمنافسة فى بناء المراكب الحربية ، ولأن الخبراء البحريين قد أفتوا أخيرا بأن هذه المراكب الحربية ستفقد كثيرا من أهميتها فى الحروب المقبلة وسيعتمد فن القيادة الحديث على القطع الصغيرة كالنسافات والمدمرات او الغواصات والطيارات ، وهى الاسلحة اللازمة للمحاصرة وحماية أو مهاجمة المراكب التجارية وغيرها

وقد خرجت انجلترا من مؤتمر واشنجطون وهى أقوى اسطولا مما دخلته ، إذ تقرر الاقلال من بناء المراكب الضخمة التى تمتلك انجلترا منها عددا كبيرا وبذلك أصبح فى وسع انجلترا أن تكثر من بناء المراكب الصغيرة . وعارضت فرانسا فى الاستغناء عن الغواصات إذ هى الضمان الاكيد فى حالة حرب ضد انجلترا ، وكانت النتيجة أن عارضت انجلترا فى تقليل عدد المراكب الصغيرة . ووافق المستر هيوز رغم مشورة خبرائه على المساواة بين أمريكا وانجلترا فى المراكب الضخمة التى كانت أمريكا تستطيع أن تتفوق على انجلترا فى بنائها (مهما كثر ثمنها) ثم طلب المستر هيوز المساواة فى النسافات التى ليس لأمريكا منها إلا عدد صغير بينما أن انجلترا تملك منها عددا كبيرا جدا ، فرفضت انجلترا وانقطعت المفاوضات

ووضع الانجليز عقب المؤتمر برنامجاً للاسطول زاد من الفرق بينه وبين الاسطول الامريكى . فكان ذلك الاميرالية من حمل الحكومة التى شعارها « التوفير قبل كل شىء » على اعلان أنها « لا بد من المساواة بين الأسطولين اما بواسطة معاهدة واما ببناء قطع جديدة » . ولسنا نفهم ماتربحه انجلترا من مسلكها هذا ، فالولايات المتحدة تستعد للحرب كما أوضح الاميرال بلانكت . وسيخسر الشعبان فى الحرب ولكن خسارة بريطانيا ستكون أنكى وأعظم ، فسينقطع بقاءها كامبراطورية ضخمة وذلك للاسباب الآتية :

فى بحر السنوات العشرة القادمة ستجعل أمريكا أسطولها التجارى مساوياً على الاقل لاسطول انجلترا التجارى كما تم فى الاسطول الحربى . يضاف إلى ذلك أن أمريكا متفوقة فى الرجال والمواد الخام ، والمأكولات ، والاحتياطى من المال ، ووسائل الدفاع الطبيعية ، وستعانى انجلترا على الارجح صعوبات العمل والكفاح السياسى فى بلادها وكذا ثورات الوطنيين المطالبين بالاستقلال فى كثير من مستعمراتها ، ثم ان انجلترا معرضة لمهاجمة جيرانها الأوروبيين لها بالغواصات والطائرات ، والكثير من هؤلاء يرحبون بالفرصة لأكمال هزيمة بريطانيا لا لأنهم

يحبوننا بل لأن كراهيتهم لبريطانيا أعظم . أما أعداء أمريكا أى المكسيك ودول أمريكا الوسطى فهم ضعاف جداً نسبياً ، وأما كندا فالمرجح جداً أنها لا تتداخل فى هذه الحرب ، كما يرجح بقاء اليابان على الحياد لتشهد عدويها اللدودين يحطم أحدهما الآخر . بل ولو سلمنا جدلا بأن انجلترا ستنتصر فى البر والبحر فان الجراح البليغة التى ستصاب بها داخلياً وخارجياً ستجعل هذه الدولة الواسعة الأطراف غير قادرة على البقاء متماسكة كما كانت

• • •

وهذا ما يراه كل انسان ، ماعدا أولئك القوم الذين يديرون البحرية والخارجية ، وهناك فى كلا البلدين أناس من ذوى النفوذ يسعون للصلح ، والحل الوسط ، وذلك بعقد معاهدة سياسية اقتصادية تسوى كل مسائل النزاع بين الدولتين . ولكن عقد مثل هذه المعاهدة ليس ممكناً من الوجهة العملية

وقد ضاعفت أمريكا جيشها فى وقت السلم ، كما أعدت احتياطياً كبيراً . ولا يزال الكفاح من أجل البترول يتسع ويهدد هذا السلم الظاهرى الكاذب .

المرأة

لرابندرات طاغور

ملخصة عن الانجليزية

حين تدفع الذكور إلى التطاحن وتقتيل بعضها البعض . فللطبيعة مسئولياتها فى هذا الشأن — ذلك أن حاجتها إلى الاناث أشد منها إلى الذكور — وبما أن الطبيعة مجبولة على مراعاة مصلحتها الاقتصادية ، فهى لاتعنى عناية خاصة بذلك الجنس الميال الى العراك ، خصوصاً وان مايدفعه الذكور من واردات الطبيعة نصيب ضعيف — ولهذا فنحن نشاهد ان الاناث فى عالم الحشرات تتكفل بحصر عدد الذكور عند الحد الذى تدعو اليه الحاجة الماسة .

أما وقد تخلص الذكور فى العالم الانسانى من قسم وافر من مسئولياتهم تجاه الطبيعة ، فقد نالوا بذلك حرية الحركة والمغامرة ، والمعروف عن الانسان أنه الحيوان صانع الآلة — وهذه الصناعة خارجة عن دائرة اختصاص الطبيعة . وفى الواقع أن الانسان قهر الطبيعة بتلك القوة التى استمدها من الآلة ، وبما أن القسط الاعظم من قوى الرجل قد تحرر تحرراً تاماً من قيود الطبيعة ، فقد استطاع بذلك أن يعنى بقوة الآلة فيجعلها عظيمة فعالة . بيد أن المرأة وهى ماتزال تحتفظ فى المملكة الانسانية بالعرش الذى أجلستها عليه الطبيعة ، ترى أن الرجل قد أقام له ملكا جديداً فى عالم العقل ، وقد استغل الرجل حريته من القيود الطبيعية التى ترتبط بها المرأة وسار فى طريقه سيراً حثيثاً ، الا أنه محفوف بالمخاطر ، مزدحم بالثورات والتقلبات

والمرأة غير ميالة بطبيعتها الى المغامرات والضرب فى صدور المجهولات حبا فى الاستطلاع — وكل قواها تعمل عملا غريزياً لالباس الاشياء ثوباً من الكمال ، لان هذا هو قانون الحياة : ومع أنه لايوجد فى الحياة شىء كامل ، الا أن كل حركة من حركاتها تحمل معها نغمة من نغمات الكمال ، فحتى الكم له معناه من الكمال كذلك الزهرة ثم الثمرة ، ولكن البناء غير التام ليس له ذلك المعنى من الكمال فى ذاته . واذا ظل البناء يذهب فى أحجامه كل مذهب ، خرج بذلك عن معناه من الاستقرار . ومن مبانى الرجل فى مدنيته ، أبراج بابل ، وهذه مما لاتراعى فى ذهاب أحجامها ،

قوة أسسها ولا أصول النماء ، ولذلك تسقط المرة بعد المرة . وليست مدنية الرجل نماء متواصلا وانما هي عملية متقطعة تكون طبقاتها الكثيرة من خرائب وبقايا مدنيات عدة

ومدنية الطور الحالي من التاريخ هي مدنية الرجل ، وهي مدنية من القوة لا يكاد يكون للمرأة شأن يذكر فيها ، ولهذا فهي (المدنية) مسلوبة من روح التوازن ، وتقفز في سيرها من حرب الى أخرى . وبما أنها ذات جانب واحد وهو جانب الرجل ، فهي تتحطم بسرعة فائقة على صخور قاسية من النوازل المتعاقبة .

وقد حان الزمن الذي يوجب تداخل المرأة وبعث نغمات حياتها المتساوقة الى قلب تلك الحركة المضطربة من القوة .

وعمل المرأة في الحياة هو العمل السلبي الذي تعمله التربة الارضية التي لا تساعد الشجرة على النمو فقط ، ولكن تحصر نموها ضمن حدود معروفة أيضاً . وللشجرة حق النماء ، وارسال أغصانها باسقة الى كل الجهات ، ولكن روابط صلاتها العميقة مع التربة الداخلية يجب أن تظل ضاربة في باطن الأرض مخفية عن الانظار . وفي هذا حفظ حياتها وقوة نمائها . ولمدنية الانسان أن تتسع بعناصرها السلبية وأن تذهب في نمائها كل ذهاب ، ولكن أصولها يجب أن تظل ثابتة في مراكز أسسها . واذا فقدت تلك الاصول قوتها من الاخلاق أضاعت المدنية كل ما لها من بقاء ونماء ومتانة المدنية تقدر بما فيها من الروح الاخلاقية ، وهذه حقيقة لم يعمل بها الانسان بعد العمل الحق ، ولكنه فهم مافيها من جوهر الصدق .

وليست المدنية مجرد نمو ولكنها تساوق في النمو ، ولا هي مجرد نغمات ترسل كيف كان الامل . ولكنها نغمات مضبوطة بتوقيتها ، وهذه الضوابط لا تعيق سيرها في جريانه ، ولكنها توجيه وتدفع به الى الامام ، وذلك كشاطىء النهر يزجي جريانه ويحفظ مياهه ضمن مجراه بدل أن تسيل كل مسيل وتجف في مستنقعات متفرقة في مختلف الاماكن . وتصبح المدنية بذلك لا تتعارض وحركات الحياة ولكنها تسير بها الى الحق والجمال .

وقد طبعت المرأة على الصفات السلبية للعفة والاحتشام والاخلاص والتضحية أكثر من الرجل . والجانب السلبي في الطبيعة هو الذي يحول قواها العظيمة الى ابداع تام من الجمال . فتنقلب قواها الجامحة الى قوى مروضة موقوفة على تمم الحياة ، وهذه الصفة السلبية في المرأة منحتها تلك الثروة العظيمة من الرزانة اللازمة لمعالجـــة

وتغذية وتعرقيل الحياة . ولو أن الحياة لسراف كلها لشابهت شعلة من النار تلتهب الى حين ثم تنتهي بخفنة من الرماد . وواجب الحياة أن تكون كالسراج . فقوة النور الكامنة فيه ، أعظم فى صفتها ، مما يظهر فى لهيبه . وقوة الحياة الكامنة فيها ، توجد هناك فى أعماق سلبية المرأة .

ويلاحظ فى المرأة الغربية تقلقل وعدم استقرار ، الأمر الذى لايتفق وطبيعة الأنثى . والمرأة التى تحتاج فى اثارة اهتمامها الى حافز خاص من الاشياء التى تحيط بها ، تدل بذلك على أنها فقدت صلتها بعالمها الحق

ويظهر أن البعض من نساء ورجال الغرب يهملون الاشياء المادية ويتطلعون الى ما هو غير عادي ، ثم يوجهون كل جهودهم فى الباس هذا الشيء الغير العادى ثوباً كاذباً من الحق الموهوم ، حتى يستلفتوا به الانظار ، غير معنيين بقيمة ذلك الشيء من من ناحية كفايته لسد الحاجة المنشودة ، أو عدم كفايته لذلك . والجهود التى تصرف فى هذه السبل أكثر ضرراً بالنساء منها بالرجال لان حيوية النساء أقوى من حيوية الرجال ، إذ هن أمهات الجنس والمتكفلات بحفظه . واهتمام المرأة بالاشياء التى تحيط بها ، والتى هى الاشياء العادية فى الحياة ، اهتمام صادق ، ولولا هذه العاطفة الصادقة فيها لفنى الجنس فناء محزناً . ودوام التجاء المرأة فى اثارة اهتمامها ، الى حافز خارجى من شأنه أن يولد فيها عادة عقلية خطرة تستعيد لها حساسيتها فتفقد بذلك قوة عاطفتها الحساسة ، وتضيع بهجة انوثتها وقوتها الصادقة فى حفظ النوع

واهتمام الرجل بالناس يكون صادقاً اذا وجد فيهم هبة خاصة من القوة أو الفائدة وأما المرأة فتهتم بالناس لانهم خلائق حية ولانهم انسانيون فقط ، غير معنية بأية اعتبارات أخرى . وهذه العاطفة القوية فى المرأة تجعلها ساحرة للألباب ، وفيض اهتمامها الحيوى ، له من قوة السحر ما يجعل حديثها وضحكها وحركاتها وكل شيء فيها جميلا محبباً ، ونغمة الجمال توجد فى ذلك الاتساق مع كل ما يحيط بنا مما يسترعى الاهتمام ، ومن حسن الحظ ان عالم حياتنا اليومية ، له جماله الجارى من الاشياء العادية .

واذا اعتادت المرأة أن تقدر الاشياء بما فيها من المصلحة لها ، أزعجتك بالحاحها ، وانحرفت بروحك عن نقطة تقابلها مع الخالد ، وخنقت صوت اللانهائى الذى فيك بضوضاء لا معنى لها من الحركة المستمرة .

ولست أعنى بذلك أن الحياة البيتية هى الحياة الوحيدة للمرأة ، وانما أعنى أن العالم الانسانى هو عالم المرأة ، والحقيقة التى لا تنكر هى أن المرأة منذ أن تولد بين

يدى أمها ، فانما هى تولد مركز عالمها الحق ، وهو عالم الصلات الانسانية.

وواجب المرأة أن تتخطى بقوة عاطفتها ، ظواهر الاشياء الى دواخلها حيث يوجد فى قلب سر الحياة مورد لا ينضب من دواعى الاهتمام ، والله قد أرسل المرأة لتحب عالم الاشياء العادية والحوادث الجارية ، وأما الرجل فيعيش فى عالم يبدعهو من القوة والمال .

وفى هذا الطور من المدنية الذى يسمح فيه بتشويه الافراد والتفاخر بذلك باسم الوطنية ، تصعر المرأة بخجل من أنوثتها ذلك ان الله أرسلها لحفظ الفرد والعناية به ، والافراد فى اعتبار المرأة من وجهة واجبها الالهى ، أكثر قيمة من الجيش والبحرية والمعامل وما الى ذلك .

وأما الرجال فقد أخذوا بنشوة القوة ، فاحتقروا الاشياء الحية ، والصلات الانسانية ، فكثير من النساء أيضا أخذن يصحن صيحتهن فى سبيل نكران حقيقة أنوثتهن ومحاولة اثبات أن حقيقة المرأة اليوم ، توجد هناك حيث تمثل القوة والنظام .

ومدنية اليوم هى مدنية الرجل ، وقيمة الفرد فيها تنقص اليوم بعد الآخر ، فالنظام الآن يتعدى على منطقة القوة للصلات الشخصية ، وتتخلى العاطفة عن مكانها للقانون .

وفى بعض القبائل تقتل المواليد الاناث حتى يحصر عدد النساء عند حد معين ، والمدنية الحالية تعيد هذه العملية بصورة أخرى فهى تسلب المرأة من بيتها وتدفع بها المكاتب ، وتشغل بقوتها كل مكان حتى لا تكاد تجد المرأة مكانا تقف فيه كما تريد طبيعتها أن تكون .

وتاريخ تكوين الارض ينبئنا عن عصر مضى كانت الظواهر الطبيعية فيه مطلقة اليد فى تصرفاتها من ثوران وجيشان ، فلما وصلت الارض فى نضوجها الى طور ثابت أبت على تلك الظواهر ، حرية تصرفاتها المخربة . وهذه المدنية المؤلفة من تنافس اقتصادى وقوى محتربة ، لابد وان تصل الى عصر نضوج ترتكز فيه على قوة الحق والجمال لا قوة التنافس والتطاحن .

وبالرغم من أن المدنية الحاضرة هى مدنية الرجل لانها تقوم على القوة ، فليس فى استطاعتها تجاهل المرأة .

والمرأة لا تسعى الآن الى كسب الرزق فقط ولكنها تسعى ضد احتكار الرجل للمدنية لان فى ذلك الاحتكار حطة لقيمة المرأة

وتلك المركبة الهائلة من النظام والقوة فى المدنية الحاضرة ؛ تسير فى طريق الحياة مرسلة أصواتا منكرة ، وباعثة الشقاء والاوجاع فى كل خطوة تخطوها ، ذلك أن غايتها هى سرعة السير غير معنية بأية اعتبارات أخرى .

وواجب المرأة أن تحافظ على أزهار العواطف من لفحات المدنية اللاذعة ، وأن تستشعر مسئولياتها التى زادت قيمتها وثمنها فى العصر الحالى لان المرأة مسئولة عن العناية بالافراد والمدنية الحاضرة تتجاهلهم فعليها هى أن تمد يدها وتضمد جروحهم وتخفف من أوجاعهم .

وقد أبلغ الرجال مبلغ سخف مدنيتهم القائمة على فكرة الوطنية — أعنى على الاقتصاد والسياسة ومايتبع ذلك من الروح الحربية .

والمرجو أن تقوم المدنية القادمة على التعاون الاجتماعى العام فتحتل المرأة مكانها الحق فيها، والرجال قد توهموا أن فى ادارتهم لتلك النظم الهائلة من المدنية معنى من معانى الكمال وهذا خداع كاذب ماعدوه خداع . ورأى أن المرأة سوف تجد فى المدنية القادمة تعويضا لها لانه فى المدنيات السابقة من نكران واضح

واولئك المغرورون بقوتهم المسرفون فى استخدام القوة والتسلط باسبابها ، والذين فقدوا المعنى الصحيح من تعاليم سيدهم التى تقول « طوبى للودعاء لانهم يرثون الارض . » اولئك القساة القلوب سوف يقهرهم الجيل القادم ويحط من كبريائهم .

وهذا هو عين ما حدث قبل التاريخ ، تلك الخلائق المخيفة من أمثال المأموث والديناصور وما الى ذلك اذ فقدت تلك الخلائق القوية ميراثها فى الأرض وتخلت عن مكانها لمخلوقات أخرى أضعف منها جســـداً وقوة ولكنها أصلح للحياة وأضمن بها منها .

والنساء الضعيفات فى ظواهرهن ، واللواتى كن دائماً متروكون فى المؤخرة فى ظلال تلك الخلائق المخيفة المعروفة بالرجال ، اولئك النساء سوف يحتللن فى المدنية القادمة مكانهم الحق وتتخلى الرجال عن سلطانهم اليوم ، وما شاء الله كان .

يوسف حنا

بين الصحف والمجلات

سطوة الاديان على حرية الفكر

رد على مقال الاستاذ فريد وجدى « سطوة الالحاد على الاديان » وقد لخصناه فى العدد ٣٣ من العصور

لا أعرف كيف يجوز لعالم مثل الاستاذ محمد بك فريد وجدى أن يكتب هذا المقال وتحت هذا العنوان . فاذا فرض وسلمنا بأن للالحاد فى هذا العصر سطوة على الأديان ، فلماذا لايتذكر ما كان من سطوة الاديان على حرية الفكر ، وعلى العقول تغلها وتصدها عن مسايرة متجهاتها الطبيعية خلال كل العصور ؟

لماذا لايتذكر محاكمة سقراط بجانب الحادية طاليس ؟ ولماذا لايذكر اضطهاد كوبرنيكوس وغاليليو واحراق جيوردانو برونو وغيرهم ، بجانب مايذكر اليوم من سطوة الالحاد على الاديان ! على أن فى قول الاستاذ بأن للالحاد على الاديان سطوة ، مغالطة صريحة . فليس للالحاد سلطات يقوم عليها ، وليس فى الأرض حكومة واحدة « دينها » الرسمى الالحاد ، ليكون للالحاد فيها سطوة على الاديان . اللهم إلا روسيا ، وهى بلاد ليست فى حالة قياسية طبيعية لتتخذ دليلا يستدل به ، وحجة يركن اليها

والحقيقة أن الاستاذ وجدى قد ظهر فى مقاله متأثراً بكل ما أخرج العقل اللاهوتى من الآثار التى تقبل على غير وعى من العقل بحقيقتها . فمجرد قوله « سطوة الالحاد على الاديان » يدل على هذه الحقيقة أقوى دلالة . ذلك لان كل المبدعات الحديثة يصح أن يقال إن فيها أثراً من الالحاد إذا أخذت على أنها تنافى الأديان أو قواعدها المقررة أو تفسيراتها التى فسرت بها الكتب المقدسة . وليس أمامنا إلا أمرين اثنين ازاء هذا الموقف : فأما أن نقول ان التفسيرات القديمة كانت خطأ ويجب أن توضع تفسيرات أخرى تطابق المبدعات الحديثة ، وعلى ذلك نحكم على كل الأجيال الماضية بأنها فهمت الدين فهماً غير مصيب ، وأنها أخذته تقليداً ، كما هو الواقع ، وذلك أحط ضروب المعتقد ، واما أن نقضى بأن الاديان وتفسيراتها أشياء خاضعة لمبدعات العقل ، وأن العقل يكونها تكويناً جديداً كلما شعر بالحاجة إلى ذلك

ارضاء لنزعة الاعتقاد الثابتة فى النفس الانسانية . وبذلك تفقد الاديان قدسيتها وغيبيتها . وتصبح مظهراً نفسياً بسيطاً كأى مظهر آخر من مظاهر النفس الاجتماعية

وانى لاعتقد أن الذى دفع الاستاذ وجدى بك على أن يضع عنوان مقاله فى هذا القالب ، حقيقة محسوسة ، وهذه الحقيقة ان حرية الفكر قد تناولت بالنقد فى الماضى الفروع ، أما الآن فانها بدأت تعمل الفأس الباترة فى الاصول . وهذا مايدعوه وجدى بك « سطوة الالحاد على الاديان » .

ولو رجعنا إلى تاريخ تطور الفكر الانسانى لوقفنا على حقيقة لو أن الاستاذ وجدى جعل لها فى كلامه بعض الاعتبار ، إذن لامكنه أن يعرف أن تحول الفكر نحو البحث الحر ، وهو الذى يدعوه الحاداً ، كان ذو خطى متسقة عجيبة النظام وانه اتبع نهجاً رتيباً ، أخذ يتدرج فيه خلال الازمان .

وليس لنا أن نسرد له نسقاً كاملا من هذه التدرجات ، بل يكفى عندنا أن نقول له ان حرية الفكر عمدت من أول الامر إلى التخلص من التقاليد مستندة إلى الاستنتاج العقلى . أما اليوم فانها عمدت إلى الغاية نفسها مستندة إلى الاستقراء العملى . ولاجرم أن السنادة الاخيرة أقوى أثراً من أصول التقاليد وأشد فأساً . بيد أنها أثبت قدماً . ذلك لان التقاليد اخباريات ، اما الاستقراء العملى فعلم ثابت .

لما أعلن يهود هولاندا فصل « سبينوزا » العظيم عن هيكل اليهودية لالحاده أرسل اليه أحد تلاميذه الاقدمين وكان اسمه « ألبرت بورغ Albert Burgh » خطاباً جاء فيه

« تزعم أنك وجدت أخيراً الفلسفة الصحيحة . فمن أين عرفت أن فلسفتك أقوم من كل صور الفلسفة التى علمت خلال كل الأجيال وفى مختلف أنحاء الدنيا التى تعلم أو التى سوف تعلم فى المستقبل ؟ ولا أريد أن أقول شيئاً عن صور الفلسفة التى سوف يتمخض عنها المستقبل ، بل أريد ان أسألك هل امتحنت كل صور الفلسفة التى ظهرت قديماً وحديثاً ، والتى تعلم الآن فى هذه البلاد وفى بلاد الهند وفى كل بقاع الدنيا ؟ وحتى لو فرضنا أنك امتحنتها جميعاً . فكيف تعرف أنك انتخبت من بينها أقومها ؟ كيف تجرؤ على أن تضع نفسك من فوق كل البطارقة والانبياء والرسل والشهداء والحكماء ورعاة قوانين الايمان فى الكنائس ؟ أيها الرجل التعيس ، أيها الدودة التى تدب من فوق الارض ، كيف تجرؤ على أن تساوى الحكمة الأبدية بتجديفاتك السخيفة ؟ أى أساس عندك تقيم عليه مذهبك الفاسد الجنونى المبتذل الملعون ؟ أية

خيلا. شيطانية دفعت بك إلى اصدار أحكام قاطعة على أسرار أعلن الكثالكة أنفسهم أنها مما لا يمكن ادراكه الخ الخ ».

هذا مقال مما يعد العقل أفسدته التقاليد . على أن جواب « سبينوزا » Spinoza عليه أدليل على حرية الفكر عمدت الى الاستنتاج العقلي ، دون الاستقراء العلمي الصرف . قال

« أنت يامن تزعم انه وقع على أقوم دين ، أو بالاحرى على أفضل المشرعين وعقد عليهم ثقته وايمانه ، كيف عرفت أنهم الاحسنون من بين الذين علموا الديانات وبشروا بها ، أو الذين يبشرون بها فى المستقبل ؟ وهل امتحنت كل هذه الديانات التى ظهرت قديما وحديثا والتى تعلم هنا فى هذه البلاد وفى بلاد الهند ، وفى كل بقاع الارض ؟ واذا فرضنا انك امتحنتها جميعاً ، فكيف تعرف انك انتخبت الأقوم من بينها؟ »

ومن هذه الدرجة انتقلت الفكرة الى الاثبات العملى . وكان أول من وضع القواعد العملية الحديثة فى قياس حرية الفكر الفيلسوف الايقوسى المعروف « داقيد هيوم » . وفى مذهبه هذا دعى الى الاقلاع عن الاعتقاد بصحة أى شيء لا يقدم على حقيقته جامدة من الكميات أو العدد . بل قضى بأنه من الواجب ان يرفض الانسان كل مالا يقوم على هذه الحقائق باعتباره سفسطة وأوهاماً وكتاباته . الفهم الانسانى أساس لمذهبه هذا .

وليس فى هذا شيء من سطوة الالحاد على الاديان . بل فيه تدرج طبيعى للفكر من حال الى حال ، وكلاهما طبيعى باعتبار الزمان والمكان .

***

لفظة اقليم

المقتطف عدد مايو سنة ١٩٣٠ الجزء الخامس مجلد ٧٦ من مقال عنوانه الاقليم واثره فى التاريخ ، مترجمة عن ليونارد هكسل

ثبت من هذا المقال العبارة الآتية :

« استعملنا لفظة إقليم ترجمة للفظة الافرنجية — Climate — المأخوذة من لفظة « كليما » Clima — اليونانية ومعناها الأصلى انحرف أو مال . استعملها اليونان لتدل على ميل محور الارض . فالتغيير فى « الكليما » كان ينشيء تغيراً فى مركز خطوط

العرض بالنسبة الى الشمس . وهذا كان يحدث بدوره تغيراً فى أحوال الجو وطول النهار وقصره » قلنا ولعل اللفظة العربية اقليم منقولة عن الاصل نفسه . راجعناها فى المعجمات العربية التى بين أيدينا ، فوجدنا بعضها يقول « اقليم يونانية معربة » . وإذن فلفظة اقليم يجب أن تدل على الدلالة على المقصود من لفظة Climate أى متوسط حالة الجو . أما الطقس Weather فيدل على حادث من سلسلة الحوادث الجوية التى يتألف منها الاقليم » .

ونحن نوافق الاستاذ محرر المقتطف على هذه العبارة . وكان العرب يقولون ان مكان كذا « معتدل المناخ حسن الاقليم » . ولا شك مطلقا أن لفظة « اقليم » معربة دخيلة فى اللغة العربية .

***

كيف يعللون الاختلافات بين الأمم !

من مقال فى مجلة « كل شىء » الصادرة فى ١٠ مايو
« الناس يعيشون كلها ألغاز »

ذكر محرر مجلة « كل شىء » فى مقال تحت عنوان « كلها ألغاز » الامور التى تختلف بها بعض الأمم عن البعض الآخر . فبعد أن ذكر اختلافهم فى طرق تبادل التحية وفى المقاييس والمكاييل وفى نظام العملة وطوابع البريد والقوانين المدنية والجنائية ، وجد بعض العذر للخلاف الواقع بين عادات البشر وتقاليدهم ولم يجد عذراً للامور والاختلافات الاخرى . فانه لم يجد مثلا عذراً لمعاملة الجانى معاملة مختلفة فى بلاد مختلفة لاقتراف نفس الجناية . وقد كان أحسن لو وقف عند حد التساؤل وطلب التفسيرات مع ما فى ذلك من الخطأ ، لأن التفاسير كثيرة وأكثر الاختلافات التى لم يجد لها تفسيرا تأتى من اختلافات فى التقاليد والعادات التى وجد حضرته لها عذراً — على أنه لم يقف عند هذا الحد بل تعداه الى الاستنتاج والاستدلال فأتانا بتعليل لم نر فيه شيئا من الصحة ولا ينطبق على الحقيقة العلمية والتاريخية واليك استنتاجه :

قال ان كل تلك الاختلافات (ومنها خلع الاورپى قبعته كعلامة الاحترام للغير وابقاء الشرق طربوشه على رأسه للغرض نفسه — وعهدى به قد حسب هذه اختلافات فى التقاليد والعادات ووجد لها عذرا) دليل على ما بين البشر من التنافر والتنابذ وعلى انهم لا يحبون بعضهم بعضاً ولا يتمنى أحدهم الخير لاخيه . ولم يكتف بذلك بل وجد أن أصدق برهان على هذا هو أن الناس أنشأوا جمعيات للرفق بالحيوان ولم ينشئوا جمعيات للرفق بالناس .

فيا حضرة المحرر المحترم هل في استعمال الطبيب الاميركي مقياس فرنهيات واستعمال الطبيب السويسري مقياس سنتيغراد دليل على أن الاثنين لا يحبان بعضهما ولا يتمنى أحدهما الخير لاخيه ؟ وهل اذا استعملت تشيكوسلوفاكيا طابعاً للبريد عليه صورة الرئيس مازاريك واستعملت فرنسا آخر عليه صورة باستور يكون ذلك دليلا على التنافر بين القطرين ؟ وهل اذا كان جزاء الياباني اقامة نصف سنة في السجن وجزاء الاسوجي اقامة سنتين للجرم نفسه برهان على التنابذ بين الأمتين ! لا أظن أحدا يسلم بصحة ذلك واذا فعل فقد يكون في الامر معجزة . قد يكون كل من الآنف ذكرهم بغيضاً للاخر ولكن ذلك لا يمكن أن يكون من أجل تلك الاختلافات وانما لأجل عداوة شخصية أو نزاع جنسي أو ثأر وطني أو تنافس دولي . اعلموا يارعاكم الله ان لكل أمة عقليتها المتأصلة فيها ولها أيضاً محيطها الجغرافي الذي يختلف في أكثر الاحيان عن محيط غيرها من الامم . ولكل من تلك العقلية والحالة النفسية وذلك المحيط الجغرافي تأثير على مؤسساتها وقوانينها وعاداتها وطرق ابحاثها . فليس من الضروري اذن أن تكون تلك الاختلافات ناتجة عن البغض بين الامم .

يريد حضرة الكاتب أن يبدي كراهيته لتلك الاختلافات الكثيرة ، ولا بأس في ذلك لان كثيرين يرون في تلك الاختلافات عثرة لفكرة التعاون الدولي ولسير الاشغال والاعمال المختلفة بسهولة بين الدول .

ولكن ان رأى ضررا أو رأي نفعا في وجود تلك الاختلافات — التي انما أوجدتها اختلافات عقلية البشر ومحيطهم والاختلاف في طريقة ادراكهم للافضل وطرق التوصل اليه — فانه لا يحق له أن يرى في تلك الاختلافات دليلا أن الانسان لا يريد الخير لاخيه الانسان ولا يحبه .

وهل لي أن أسأل المحرر عما عنى بانشاء جمعيات للرفق عن المظلومين من بني الانسان وتمنع القوى من التسلط على الضعيف فاي جمعيات أنسب وأفعل من تلك التي أنشأها الناس وسموها « حكومات » . قد ينتقد الكثيرون الحكومة ونظامها الذي لا يؤول في كثير من الاحيان الى الرفق بالانسان ومساعدة الضعيف ضد القوى ولكن ماهي الجمعيات التي يعنيها حضرة الكاتب ؟

هذا ما أردنا أن ننبه اليه أفكار المحرر وكثيرين مثله وأملنا أن تكون في ذلك الفائدة المطلوبة والباب المفتوح لمن يريد أن يلجه والسلام .

جورج مرعي حداد
بكلوريوس في العلوم

الاستاذ عبد الله عنان والمصور

بمناسبة ما نشر في جريدة السياسة من أن للمصور علاقة بالحركات الشيوعية
فعملها على تكوين حزب الفلاح ، ورد المصور عليه في العدد ٣٣ منها

كتب الاستاذ المحرر (الارتوازى) عبد الله عنان فى جريدة السياسة يتهمنا بالشيوعية وبأن لنا علاقة بشيوعية موسكو وان هذه الشيوعية تمدنا بالمال لنطبع المصور طبعا متقنا يحتاج الى كثير من النفقات فى حين أن موارد المجلة محدودة ».

ولقد حفزنا هذا الى الرد على هذا الكاتب (الارتوازى) لتهجمه علينا بغير مبرر وذهابه فى الرد مذهبا لا يرضى عنه صحفى يعرف ما هى آداب الصحافة ولا الى أى حد يجب أن تذهب المجاملة بين الصحفيين فى مجال المناقشات . ثم اتهمناه بعد ذلك بأنه يسطو على كتب الغربيين فيخرج منها بتف يلقيها على حالها أو يعطيها فتصبح كتابا يحمل اسم مؤلف هو عبد الله عنان ، وان « النقل محظور بالمرة » !!! هذا وهو يعلم أن الكتاب من الفه الى يائه منقول بنصه عن مجهود غيره من المؤلفين .

وتعزيزا لهذه الحقيقة التى نصرح بها الآن بعد أن بلغنا أن الاستاذ عنان (الارتوازى) بعد عدته لهجوم عام يوجه الى المصور ، نثبت هنا وعلى صفحات المصور ان عنانا هذا نقل كتابا للزميلة « الهلال » ليكون احدى هداياها التى تهدى بها مشتركيها ، وادعى انه من تأليفه وكتب عليه ان النقل محظور بالمرة . ولكن الكتاب لم يلبث أن ينشر حتى وصل الى الزميل صاحب « الهلال » خطاب من شركة النشر الفرنسوية التى نشرت الكتاب تحتفظ بحقوقها ضده لنشره الكتاب فى العربية ونقله الكتاب الذى نشرته من غير حق قانونى . ولكن الكتاب بعد كل هذا لا يزال ينشر ومؤلفه المحامى الاستاذ عنان الكاتب (الارتوازى) وعليه هذه العبارة « النقل محظور بالمرة » .

أما شاهد الرؤية الذى أطلع على هذا الخطاب ، ويعرف الحقيقة معرفة العيان ، فزميلنا الاستاذ سلامة موسى صاحب المجلة الجديدة الغراء .

النقد والتأليف

العاصفة

وليم شكسبير — ترجمة ابو شادى — صفحاتها ٨٠ صفحة ولها ملحق فى ٦٤ صفحه فى تحليل الروايه — محلاة بصور كثيرة فى نحو عشرين صفحه ، ثمنها ١٠ قروش ، وتطلب من المكاتب ومن ادارة المقتطف

« تعد العاصفة من أظهر درامات شكسبير الروماطيقية فى قوة الخيال والابتداع والتفنن . ففيها يجتمع الشارد بالعجيب ، والشجى بالجليل ، بصورة فنية رشيقة يزينها الخيال اللعوب . وفيها استطاع شكسبير أن يجعل الخوارق الطبيعية أمراً طبيعياً ، والمدهش مألوفاً وكأنما هو بعد فراغه من دراسة الدنيا القديمة وتصويرها ، خلق فى العاصفة دنيا جديدة على حد تعبير جنصن .

« ودارس هذه الدرامة يجد الحركة التمثيلية فيها بسيطة وكذلك الحبكة المسرحية يصعب عليه أن يقدر نهاية الرواية من أولها تقريباً . ولكن برغم ذلك لا يفقد استمتاعه بتتبعها منتظراً — ذلك لان شكسبير ملأها بمدهشات الوقائع — وبمجموعة عجيبة من الشخصيات التى هى أقصى ما بلغ اليه التخيل الجامح ، وكل هذا بغير أن أن يفكك وحدتها الدرامية وبدون أن ينص على التقاليد الفنية أما كولرج فيراها مثلا للدرامة الروماطيقية الصرفة ، وأما هذه من قمع اعترافه بان الرواية روماطيقية جدا من تنوع شخصياتها وجراءة تأليفها وتعدد حوادثها ومزاياها التصويرية إلا أنه يرى أنها فى الوقت نفسه كلاسيكية بشدة الحرص على وحدة الزمان والمكان وبصيغة تأليفها البيانية وروعتها الفخمة وبما تبثه من أدب غنائى وأخلاق وبما تخلقه من جو ثمل بالصفاء والاطمئنان » .

هذا الوصف نشرته الزميلة المقتطف للعاصفة بقلم أحد نقادها المعروفين ، والواقع انهذا النقد يتناول الرواية فى الاصل الانجليزى ، أما الترجمة فقد أبدينا فيها رأينا من قبل، فاذا أردنا أن نزيد رأينا بيانا قلنا بأن ترجمة العاصفة مثال للتقيد بالاصل ، وان ترجمة شكسبير على هذا المثال أفيد من التصرف فيه ، لأننا مهما جهدنا أنفسنا فى نقل

شكسبير الى العربية ، فانما تنقل معانيه ودروسه التى ألقاها على الناس فى رواياته ، ولن تصل الى أسلوبه . أما الملحق الذى نشر مع الرواية بمجموعه فلنا فيه كلمة ننشرها فيما بعد .

ولقد خدم الاستاذ صروف محرر المقتطف الادب خدمة تذكر له بالحمد لاخراجه هذه الرواية التى ننصح لكل أديب بأن لا تفوته قراءتها .

ooo

معجم للاحلام

الجزء الاول فى ١٤٦ صفحه من القطع الكبير — لمؤلفه اسبيرو جسرى

وهو كتاب يشتمل على مباحث علمية فلسفية فى اصل الأحلام ومنشئها والمذاهب المختلفة فى تحليلها وأقوال العلماء والفلاسفة والمفكرين فيها ، ويحتوى على معجم كامل مرتب على حروف الهجاء فى تفسير أشهر الأحلام وما يبنى عليها .

وقد عنى مؤلفه عناية خاصة بأن يجعل الكتاب جامعاً لشتى الفوائد فبوبه تبويباً حسناً وحلاه بكثير من الصور البيانية ويطلب من جميع المكاتب الشهيرة ومن مؤلفه بدار المقتطف بمصر



فهرست

عصور يونيو ١٩٣٠

ملحق مصور فى ٣٢ صحيفة مشروحة

ص